٢٣٢

HARLEQUIN

روايات احلام

# سيدة اللعبة

أليزابيث دوك

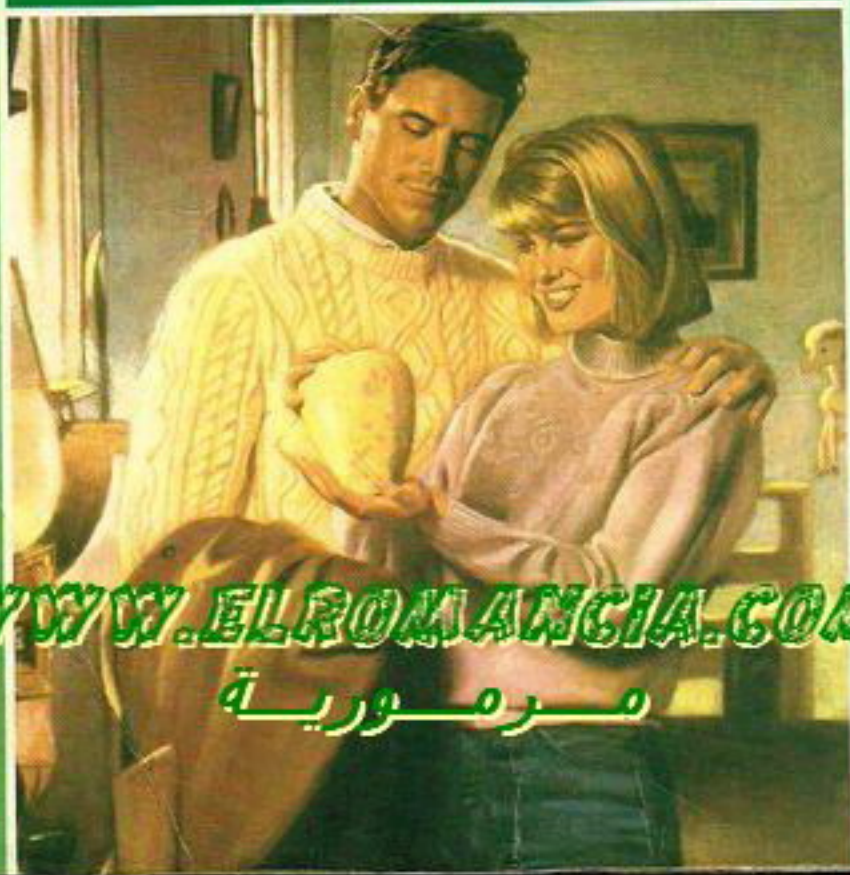

WWW.ELROMANCIA.COM
مـــرمـــوريـــة

# سيدة اللعبة

أحست تيس بالإثارة عندما تلقت دعوة للقاء جوليوس برانسون، الذي تظنه أباها، والذي لم تلتقِه يوماً، ولم يعرفها قطّ..

ولكن من التقته هو بيرس برانسون، ابن جوليوس بالتبني، أغنى رجال أستراليا وأكثرهم نفوذاً.. وأشدهم جاذبية!

وما إن التقيا حتى صمم بيرس على أن تكون تيس له، وهو رجل لم يتعود أن يُواجَه بالرفض!

قررت تيس أن تجاريه في لعبته حتى تصل إلى هدفها، ولكن إلى أي مدى تستطيع ذلك؟

# ١ ـ اللقاء الأوّل

«يتشرف جوليوس وديليا برانسون بدعوة اندرو كارستايرز وصديقته للانضمام إليهما على متن «ميستيك» في عيد استقلال أوستراليا، في ٢٦ من شهر كانون الثاني ـ يونيو ـ لمشاهدة سباق الزوارق في الميناء، والاستمتاع بأمسية الألعاب النارية، وتناول الغداء والعشاء على متن المركب. موعد مغادرة المركب في التاسعة قبل الظهر. اللباس أنيق غير رسمي».

جلست تيس، تحدق غير مصدقة إلى الدعوة التي رماها أندرو على الطاولة أمامها، وتوهجت عيناها الزرقاوان.

ـ جوليوس برانسون بذاته؟ زعيم الصحافة المعروف؟

وفرك أندرو يديه برضا: «ردة فعل أخيراً! ظننت أنني أمزح يا حبيبتي حين قلت لك إننا ذاهبان في جولة بحرية حول الميناء، مع أحد أغنى رجال أوستراليا وأكثرهم نفوذاً؟».

ابتلعت تيس أنفاسها وبقيت مذهولة من جراء ضربة الحظ هذه.

دعوة شخصية من جوليوس برانسون! هذه هي الفرصة التي كانت تنتظرها منذ أسابيع... فرصة لقاء هذا المراوغ وجهاً لوجه.

كانت سترمي الدعوة في وجه أندرو من دون أن تقرأها! فلقد كان معتداً بنفسه لا يحتمل طوال العشاء، وكأنه قطة يسيل لعابها على قطعة من الكريما.. وقد لوّح بالدعوة ممازحاً أمام أنفها، ثم أبعدها عن منالها، حتى كادت تخطفها وتدسها بسعادة في حلقه... إنه يتسلى بمثل هذه الألعاب الصغيرة المزعجة، غير أنها لم تكن بخير، ولم ترغب حتى في المجيء إلى هذا

المطعم الفخم.

تذمّر أندرو كالعادة من اختيارها لذاك المطعم البسيط والهادىء في شمالي سيدني، وأصر على المجيء إلى مطعم أكثر أناقة. فإن اختياره للمطعم المناسب وظهوره أمام الناس أمران مهمان له.

منذ لحظة جلوسهما إلى الطاولة، عرفت أنه يتحرّق شوقاً لإخبارها بشيء، فقد كانت عيناه متوهجتين، لكنها لم تملك أدنى فكرة عما قصده حين سألها: «ما رأيك بأن تحتفلي بعيد أوستراليا الوطني في ميناء سيدني معي؟ وفي يخت رسمي ضخم؟».

ردّت بحذر: «مركب من هذا؟».

فقد كان معظم معارف أندرو بالنسبة إليها متكبرين وسطحيين، لا يهتمون بسوى جني المال لوضع علامة فارقة لهم في العالم، ولا يميلون إلا للاختلاط بأناس يعتبرونهم مفيدين لهم.

ـ هل هو لأحد أصدقائك المحامين، أم لواحد من زبائنك ذوي النفوذ الكبير؟

لا شك أنّه لشخص يستطيع مساعدته في مهنته، أو يعزّز صورته بشراكته. فأندرو لا يضيع وقته مع من لا أمل منه.

كان أندرو شاباً طموحاً جداً، مصمماً على بلوغ أعلى المراتب في عالم القانون. كما كان يحب الاختلاط بأمثاله، علّهم يستطيعون مساعدته في تسلق سلم قانون الشركات.

وما كانت تيس لتدين رجلاً بسبب طموحه، فهي أيضاً طموحة، ولعل إخلاصهما إلى مهنتيهما المحترمتين هو الذي جذب أحدهما للآخر. لكنها بدأت تتساءل مؤخراً عما إذا كانت وأندرو يتشاركان الأهداف ذاتها فقد بدأت تدرك أن أهداف أندرو النهائية هي أهداف مادية، وأهدافها أكثر مثالية. فبعد رؤية أمها تعاني منذ سنوات من التهاب مفاصل مؤلم موهن، اختارت الطب كمهنة لها، وتخصصت في معالجة داء التهاب المفاصل، رغبة منها في مساعدة من هم في حالة أمها، وها هي الآن طبيبة متخصصة



وبارعة، لها عيادتها الخاصة في المركز الطبي لشمالي سيدني، وهي تشعر اليوم أنها تساعد من هم بحاجة إلى مساعدة.

لكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى أندرو الّذي يهتم بمصلحته الشخصية أكثر من أي شيء، فلم يعد يهتم بأي شخص آخر، ما عداها، ربما... وكانت تتساءل أحياناً، عن عمق مشاعره نحوها، فتعتقد أن مركزها كاختصاصية طبية، هو ما جذبه إليها، فهو لا يهتم بزبائنه كبشر، بل يهتم فقط بالنجاح، والشهرة والمال اللذين سيجنيهما نتيجة هذا الاهتمام.

كان أندرو يستمتع بأن يكون غامضاً في رده: «ليس صديقاً ولا زميلاً، مع أنني آمل في يوم ما...».

وابتسم قائلاً: «لا يتلقى المرء كل يوم دعوة من مثل هذه الأوساط الرفيعة المقام».

ثم دس يده داخل سترته الرمادية الأنيقة، يبحث بأصابعه عما في داخلها.

وتأوهت تيس في نفسها:

ـ رفيعة المقام؟

على الأرجح لن تعرف أحداً على المركب.

ـ مضيفنا عزيزتي تيس، هو أحد أغنى رجال البلاد وأكثرهم نفوذاً، وهو لا يستقبل عادة سوى عائلته والأصدقاء المقربين منه، فهو شخصية منعزلة جداً، لذا تأكدي يا حلوتي، أننا سنسهر مع نخبة من الضيوف.

بدا ذلك مضجراً بالنسبة إلى تيس، لكنها حاولت أن تبدو متأثرة، من أجل أندرو.

ـ حسن، تابع، أرى أنك تكاد تموت شوقاً لتخبرني.

ـ لا تستعجليني.

وبنظرة ماكرة، أخرج أندرو الدعوة من جيبه، ورفعها بعيداً عن منالها، وكأنه يغريها لتحاول انتزاعها منه.

ـ أريد أولاً أن أثير شهيتك، حبيبتي. تصوري فقط أنك تتناولين ثمار

البحر على المركب وعشاءً في صالون اليخت الفخم. وبعد العشاء، تخيّلي أنك تصعدين إلى سطح المركب لمشاهدة الألعاب النارية فوق «دارلينغ هاربور»، والاحتفال حتى منتصف الليل.

وصمت، ينظر إليها بترقب.

قالت تيس موافقة: «يبدو هذا فخماً حقاً».

سيكون أندرو في مكانه الطبيعي.

ـ أتمنّى أن ترافقيني يا تيس.

وبدا من عينيه المبتسمتين أنه يعني ما يقول، لكنها علمت أيضاً من ابتسامته أنه سيذهب إن رافقته أم لا.

ولمعت عيناه اللوزيتان: «لا بد أنك تموتين شوقاً لمعرفة لمن هذا المركب.. احزري».

فضربت الأرض بقدمها بعد أن نفد صبرها، وقالت: «أندرو، أنا أكره هذه الألاعيب، قل لي».

ثم نظرت إلى ساعتها: «لقد تأخر الوقت».

ـ حسناً هاكِ الدعوة.

ورمى الدعوة أمامها على الطاولة: «هيا، اقرأيها».

وكان ذهولها كل ما أمل به، وبالفعل بدت تيس متفاجئة.

فابتسم أندرو: «إذن، حتى أنت، تأثرت باسم جوليوس برانسون، ولم تقوي على مقاومة سحر السلطة والمال كما تدّعين».

فأحست تيس بالحرج... لو أنكرت، قد يبدأ بطرح الأسئلة، ولن تستطيع أن تقول له الحقيقة، ليس بعد، الحقيقة التي لم تكشفها سوى مؤخراً، ولن تستطيع إخبار أحد... وربما إلى الأبد، فالأمر دقيق جداً، لذا اكتفت بهز كتفيها مطلقة بذلك العنان لظنونه.

تراجع أندرو في كرسيه راضياً: «إذن، ستأتين معي؟».

وكان واثقاً أنه تفوّق عليها. كان جزء منها يتوق إلى صفعه لمسح تلك النظرة الماكرة عن وجهه، وكان الجزء المتبقي منها يشعر باضطراب



شديد... وهزت رأسها موافقة دون أن تحاول إخفاء شيء.

جوليوس برانسون! وسرت فيها الرجفة... والدها، أو بالأحرى الرجل الذي يمكن أن يكون والدها، الأب الذي لم تعرفه قط، جوليوس برانسون لا يختلط مع الناس العاديين. إنه رجل مشهور وقوي جداً، يحيط به نوع خاص من الناس، لحمايته من الآخرين. كانت تعرف أنها لن تستطيع أن تكتب له، ولا أن تطرح السؤال، أو حتى أن تطلب لقاء معه. ماذا لو لم يكن ما عرفته صحيحاً؟ لا، عليها بطريقة ما أن تقابل الرجل أولاً، أن تراقبه، أن تفتش عن أدلة، أو عن ردة فعل ما حين تذكر أمامه اسم أمها... ثم تقرر ما ستفعل أو ما ستقول.

حاولت أن تبدو عادية وهي تسأل أندرو بفضول: «كيف، بحق السماء، حصلت على دعوة من جوليوس برانسون؟ هل قابلته؟».

وكتمت أنفاسها.

اعترف: «لا، لقد دبّر أحد زبائني الدعوة بعد أن ذكرت له أنني كنت في كلية الحقوق مع بيرس، ابن جوليوس برانسون».

ـ وهل هذا صحيح؟

وأخذت تيس نفساً عميقاً، مدركة أنه لو كان ما قيل لها عن جوليوس إنه والدها صحيحاً، فلا بدّ أن بيرس برانسون أخوها بالتبني! وابتلعت غصة في حلقها، فهي لم تعرف يوماً أخاً أو أختاً.

وسألت مقطوعة الأنفاس: «وكيف هو شكل ابنه؟ نحن لا نرى صوراً لهما في الصحف، أليس كذلك؟».

ـ لا، ليس كثيراً، فجوليوس برانسون يملك معظم الصحف والمجلات في البلاد، والصحف المنافسة تلتقط أحياناً صورة عابرة، لأنهما لا يقفان أبداً أمام آلات التصوير، بل يحبّان أن يبقيا معزولين.

قالت بطريقة مشجعة، وكأنها تريد سماع المزيد، أي شيء.

ـ حقاً؟

قال أندرو، وفمه مشدود: «قد لا تقرئين الكثير عنهما، لكنك قد

تسمعين شائعات أحياناً، عن بيرس مثلاً».

فسألت بسرعة: «أي نوع من الشائعات؟».

وتجهّم وجه أندرو، فتيس لا تهتم عادة بالشائعات، أو بالرجال الآخرين.

- أبعدي عينيك عن بيرس برانسون. إنه ليس من صنفك.. إنه زير نساء، يتلاعب بأي شيء، يتلاعب كونه محامياً بعمل أبيه، وفوق كل شيء، يتلاعب بالنساء.

وكادت تضحك عالياً، فما كان أندرو ليحذرها لو عرف أنها وبيرس برانسون قد يكونان أخوين!

وبدا أندرو أكثر تجهُّماً. وحيرة، وتضايقاً... لا سيّما أنّ تيس بدت غير موافقة، فقد كان هذا النوع من الرجال يثير اشمئزازها.

وتابع أندرو قائلاً: «إنه ليس ابن جوليوس برانسون الحقيقي. فجوليوس وزوجته لم ينجبا. لذا، تبنيا بيرس وأخته فوبي بعد موت والديهما اللذين كانا صديقين وقريبين منهما.. حدث ذلك عندما كان بيرس في الرابعة من عمره، وفوبي في الثالثة».

وأغمضت تيس عينيها وهي تشعر بخيبة أمل... ليس لاكتشافها أن بيرس برانسون ليسا قريبها، بل بسبب قول أندرو إن جوليوس برانسون وزوجته لم ينجبا أولاداً. ماذا لو كان هو العاجز عن الإنجاب؟ إذا كانت الحالة كذلك، فلا يمكن أن يكون والدها!

فشعرت بالإحباط. وجاء صوت أندرو الحاد ليعكّر صفو أفكارها، قائلاً: «لماذا هذا الاكتئاب فجأة؟ أرجو ألاّ تشعري بالأسف على بيرس لفقدانه والديه وهو صبي صغير؟ أؤكد لك أنه ليس بحاجة إلى شفقتك، أو شفقة أحد. فكونه ابن جوليوس برانسون، سيرث وفوبي كل شيء يوماً ما. لكن بيرس هو من سيتولى إدارة امبراطورية برانسون».

رفعت نظرها إليه، محاولة السيطرة على انفعالاتها قبل أن تلتقي بعينيه، وقالت بغير اكتراث: «حسن جداً.. هذا جيد له».



بحثت عينا أندرو في عينيها، وكان لا يزال حائراً قليلاً.

وأشاحت بعينيها: «أندرو، هل نستطيع الذهاب الآن؟ عليّ أن أستيقظ في الصباح الباكر».

بدا جبين أندرو عميق التجاعيد وهو يدفع الفاتورة، وتساءلت تيس عما إذا بدأ يندم على دعوته لها بالانضمام إليه في رحلة يوم أوستراليا.. بالتأكيد لا يمكن أن يغار من بيرس برانسون لأنها فقط لم توافقه على أنه زير نساء!

لو أنه يعرفها حقاً، لعرف أنها لن تهتم أبداً برجل مثل بيرس برانسون، فهو من النوع الذي طالما احتقرته! في الواقع، لقد فقدت كل اهتمام ببيرس، لا سيما أنها عرفت أنّه ليس قريب دم لها ولا يمكن أن يكون كذلك. فالرجل العابث الثري المتكاسل هو آخر ما قد يقلق أندرو بالتأكيد!

وبدأت تشك في أن أندرو يعرفها جيداً.

بزغ فجر عيد أوستراليا الوطني، مشرقاً صافياً، فكان الصباح رائعاً لقضاء يوم في الميناء، وكانت تيس قد فكرت كثيراً بما سترتدي. لأول مرة ترغب أن تكون محط الأنظار، أن تلفت نظر جوليوس برانسون. قررت أن ترتدي شيئاً عادياً، إنما مذهلاً.

حين جاء أندرو ليأخذها من منزلها المتواضع في «نورث سيدني»، أذهله مظهرها.

فهي ترتدي عادةً الثوب الأبيض الخاص بالأطباء الذي يخفي شكل جسمها، أو ترتدي ألواناً قاتمة كئيبة من النوع الفضفاض الذي يغطي حناياها الأنثوية، فيقلل من طولها. وتضع أمشاطاً أو رباطاً لتعقص خصلات شعرها النحاسي البراق، لكنها كانت ترتدي في ذلك النهار بلوزة مذهلة بلونيها الأسود والأبيض، تتخللها خيوط ذهبية، كما كان حزام ذهبي منسوج يُظهر خصرها الضيق، وزاد البنطلون الأبيض من طول ساقيها بدلاً من أن يخفيه. أمّا خصلاتها الحمراء النحاسية، المتحررة من الأمشاط أو الرباطات، فكانت اليوم تتقلب في كومة كثيفة مشاكسة من اللونين المشعين

الأحمر والذهبي.

ـ تيس، أنت مثيرة.

نظر أندرو إليها وكأنه لم يرها من قبل، وفكرت وهي تراه يفتخر بها، أنه ينظر إليها كميدالية غنمها ويتشوق ليريها للناس. وتساءلت للحظة عابرة عما إذا كانت قد ارتكبت خطأ فادحاً، فهي لا تريد سوى لفت اهتمام جوليوس برانسون، لا أن تعطي انطباعاً خاطئاً! فهي لم تتعمد من قبل إبراز جمالها.

لكن الوقت فات لتفعل شيئاً الآن... قادها أندرو إلى سيارته اللماعة الڤولڤو، بطريقة جعلتها تتأكد متوترة أنه سيلتصق بها طوال اليوم، ويضعها كوردة في جيب سترته! وهذا لن يمنحها الفرصة للتكلّم على انفراد مع جوليوس برانسون. لكنها ستحظى، على الأقل، بالفرصة لمقابلته ومراقبته عن كثب، وستتسنى له فرصة مراقبتها. بعد هذا سيكون كل شيء بين يدي القدر.

امتدت يد متشوقة لمساعدتها في الصعود إلى المركب، لكن التاج البهي لخصلات شعرها المشتعلة كألسنة النار، والمتراقصة في شلال تثيره الشمس على كتفيها، جذب عيون الضيوف الذين سبقوها إلى المركب، وسرت همهمة حين خطت ساقاها الطويلتان النحيلتان برشاقة على سطح المركب.

وبينما كان أندرو يُظهر الدعوة التي تلقاها أمام أحد أفراد الطاقم، تقدمت نحوهما امرأة سوداء الشعر في حوالى الثلاثين من عمرها، وهي تتراقص، مرتدية ثوباً مزداناً بالأزهار: «أنا فوبي برانسون، أهلاً بكما على متن المركب».

فوبي، ابنة جوليوس برانسون بالتبني! وأحست تيس بوخزة ندم لأن هذه المرأة الودود البراقة العينين، ليست أختها الحقيقية ولا يمكن أن تكون من لحمها ودمها.

وأحست بذراع أندرو تندس بتملك حول خصرها، ثم قال بلهجة طنانة يشوبها الغرور: «أنا أندرو كارستيرز، كنت في كلية الحقوق، مع



شقيقك پيرس».

ونظر إلى تيس: «أعرّفك بأقرب صديقة لي، الدكتورة تيس كنيلي».

وبينما كانت تيس تبتسم لعيني المرأة السوداوين، اجتاحتها الرغبة في رفس أندرو. فقد طلبت منه مراراً التخلّي عن هذا اللقب في المناسبات الخاصة، فهو لا يقوله إلا للتأثير.

وتابع أندرو، للفت الاهتمام إلى نفسه: «إنه يوم ممتاز لسباق الزوارق! والطقس مناسب جداً للاحتفال بعيد أوستراليا الوطني!».

نظرت تيس حولها تتساءل لماذا لا يستقبل جوليوس برانسون الضيوف بنفسه... ربما انشغل مع أحد أصدقائه، فهناك جمهرة منهم على سطح المركب الذي يضم عدداً من الصالات، ناهيك عن الغرف التي في الأسفل.

قالت فوبي: «أخشى ألاّ يكون والدي قادراً أن يكون معنا. لقد أخذناه على عجل إلى المستشفى لإجراء جراحة مستعجلة للمرارة، ووالدتي، دي، معه. سنحل أنا وپيرس مكانهما كمضيفين، ولكن پيرس تأخر كعادته، لذا سيحاول خطيبي توم الموجود في مكان ما الحلول مكانه ريثما يأتي».

ونظرت حولها: «آه، ها هو قادم، سأناديه ليهتم بكما».

مرت نصف الساعة التالية في ضبابة سوداء من خيبة الأمل بالنسبة لتيس... بدا أندرو في محيطه الملائم، وكان يجر تيس من مجموعة إلى أخرى، وكان وجهه يضيء في كل مرة يلمح فيها وجهاً مألوفاً.

أخيراً انسحبت نحو السياج الخارجي، وحين حاول أندرو إرجاعها لمقابلة شخص ما، هزت رأسها قائلة: «اذهب أنت. سأبقى هنا لفترة.. أريد أن أشاهد سباق العبّارات».

ـ حسن، إذا كنت واثقة من ذلك.

ـ نعم، أنا واثقة.

وتنهدت مديرة ظهرها إلى بقية الضيوف واستندت على السياج. كانت تشعر بالاكتئاب... ألم يجد جوليوس برانسون يوماً غير هذا ليصاب بنوبة مرارة! لا يعني هذا أنها لا تشعر بالأسف عليه، فهي تعرف كم المعاناة

مؤلمة، لكن، لماذا لم يحصل له هذا في اليوم التالي؟ أو الأسبوع التالي؟ على الأرجح أنها لن تنال فرصة أخرى للاقتراب منه. ماذا ستفعل بحق السماء الآن؟

أجفلت لإحساسها بأصابع باردة تلمس ذراعها. فأدارت رأسها ورفعت نظرها إلى الأعلى، لتلتقي بعينين من أكثر العيون سواداً، عينان سبق لها أن رأتهما. ولسبب ما، انخطفت أنفاسها.

كان طويلاً، أطول منها هي ببضع إنشات، هي التي قلمّا تجد رجالاً أطول منها. كانت ملامح وجهه الأسمر القاتم بارزة تنم عن جاذبية تأسر القلب، وجاءت خصلات شعره الحريري الأسود المتساقطة على جبينه بفوضى لتزيد من جاذبيته، وكان أحد حاجبيه الأسودين مرتفعاً، راسماً بذلك تجعيدة عميقة على جبينه.

قال متشدقاً: «دعيني أحزر».

صوته لا يشبه أي صوت سمعته من قبل، صوت ناعم وعميق: «أنت نجمة تلفزيونية».

فابتسمت ثم هزت رأسها نافية: «أنا لم أظهر قطّ على التلفزيون».

فابتسم قائلاً: «حسناً، دعيني أحزر مرة أخرى.. أنت نجمة سينما؟ أو موديل للتصوير الفوتوغرافي؟».

تنهدت تيس وهي تشعر بخيبة أمل. فهذا الرجل لا يختلف عن الآخرين الذين يفترضون عند لقائهم بها، أنها تستفيد من جمالها، لا من عقلها.

ثم رأت الضحك ينسكب من العينين السوداوين، ونظرت إليه متسائلة: هل يقول ما يعتقد أن كل امرأة تحب سماعه؟ وهل تحب النساء اللواتي يختلط بهن عادة هذا النوع من التقرب؟ ربما تستحق هذا، لارتدائها ما يلفت النظر إليها!

وربما يستحق شيئاً من دوائه الخاص!

فردت، وهي ترفع رأسها نحوه: «دعني أحزر، أنت بائع سيارات



مستعملة؟».

والتمعت العينان السوداوان لسخريتها. ثم ضحك فجأة، واتسعت ابتسامته برضا فبدت ابتسامة دافئة وحقيقية.

ـ تعادلنا! أعتقد أنني لم أقترب البتة من الهدف!

وحدقت عيناه عميقاً في عينيها: «لا، كان يجب أن أرى هذا منذ البداية، ففيك شيء أكثر، أكثر بكثير. ليس مجرد وجه جميل! مرح، ذكاء، وسرعة خاطر، جمال مع عقل مفكر. حسن جداً.. تابعي، أخبريني، من أنت إذن؟ جرّاحة دماغ؟».

ارتفعت شفتها الحمراء بسخرية: «أنت في الميدان الصحيح. أنا فعلاً طبيبة إخصائية في التهابات المفاصل على وجه التحديد».

كانت لهجتها ساخرة، تتعمد أن ترد له بعضاً مما يستحقه.

حدق بها: «أنت طبيبة؟ إخصائية؟ لا أصدق هذا، أنت صغيرة جداً».

ـ أنا في الثامنة والعشرين.

ولكن مالبث صوت أندرو أن قاطعهما من الخلف: «بيرس، يا صديقي القديم، كنت واثقاً أنك ستجد صديقتي التي هي لي وحدي!».

ورفعت تيس عينيها إلى السماء... أنا لست له، وأرادت أن تصيح بهذا، لكن الاسم صدمها. بيرس! بيرس برانسون! كانت تتحدث إلى ابن جوليوس برانسون بالتبني؟

مد أندرو يده: «يسرني أن أراك مرة أخرى!».

لكن تيس لاحظت نظرة القلق في عينيه وهو ينقلهما من الواحد إلى الآخر.

ـ هل قدمت تيس نفسها؟

قال بيرس: «لم نصل بعد إلى مرحلة الأسماء، لكننا حتى الآن، صديقان جيدان، أليس كذلك تيس؟».

وأسرت عيناه الضاحكتان عينيها، لهنيهة.

فقالت بجفاء: «حقاً؟».

وأحست غريزياً أنه يهاجم أندرو متعمداً، وأن أندرو، الغبي، كان يحمله على ذلك، بطريقة تباهيه.

تمتم أندرو بتلك الطريقة المثيرة للسخط، ووجهه الوسيم جامد مثل تصرفاته: «الدكتورة تيس كيتلي. تيس، أعتقد أنك أدركت الآن أنك كنت تتكلمين مع مضيفنا، بيرس برانسون؟».

وذكرتها عيناه: زير النساء المستهتر ذاته، وكأنه يحثها أن تتذكر.

استدار إلى بيرس بحيث أصبح يقف بينها وبينه: «أنا آسف لسماع خبر مرض والدك يا صديقي القديم. أعتقد أنك ستستلم الإدارة عنه ريثما يتماثل للشفاء؟ إذا كان هناك شيء أستطيع أن أفعله، نصيحة قانونية، أي شيء...».

وتجهم قليلاً حين نظر إليه بيرس.

ـ لكن يجب ألاّ نؤخرك، فلا بد أنك تريد التجوّل بين الضيوف...

وتلاشى صوته بعد أن تنحّى بيرس جانباً وأمسك بيد تيس، ورفعها إلى شفتيه. ثم ضغط فمه، مرسلاً بذلك رجفة حادة في أوصالها.

وقال مصراً بنعومة: «يجب أن تخبريني المزيد عن نفسك، في ما بعد».

واستدار على عقبيه، ثم اختفى بين الجموع الغفيرة.

وجدت تيس نفسها تهدىء أعصابها ومشاعرها بسبب الدوار الخفيف الذي أثارته قبلته على يدها... هذا جنون، فهي لم تستجب يوماً لرجل من هذا النوع، منذ كانت مراهقة! هذا يُظهر كم أن أندرو على حق في ما قاله عنه.. إنه زير نساء مستهتر، داهية فائق النعومة، يلعب دور الثري المدلل حتى الشمالة. واشمأزت من نفسها، فهي لطالما احتقرت هذه الأنواع الدونجوانية، مهما كانت فاتنة في مظهرها. لماذا لم تنتزع يدها بدلاً من الوقوف بضعف وهو يطبع شفتيه الكريهتين على بشرتها؟ لا بد أنه يضحك الآن! لقد ابتعد راضياً عن نفسه دون شك، لأنه أحرز انتصاراً سهلاً آخر.

قال أندرو: «المزيد عن نفسك؟ ماذا كنت تقولين له؟ يبدو أنك أصبحت على صلة حميمة مع بيرس برانسون في وقت قصير. هل قلت له



شيئاً عني؟ هل قلت إننا مخطوبان تقريباً؟».

جاء دورها لتجفل وتتشنج: «بالطبع لا! لأن هذا غير صحيح! وتوقف عن التصرف وكأنني ملك لك! أنا لست هكذا! وكفاك تجهماً!».

وخففت من لهجتها لتخفي نفاد صبرها.

ـ لم نكد نحظى بفرصة لقول شيء... كان يحاول فقط أن يثيرك أندرو، ألا يمكنك أن ترى هذا؟

ـ ما كان يجب أن تتركيه يقبل يدك هكذا!.

ـ أوه أندرو، لم يعن هذا شيئاً.. كان مرحاً لا ضرر منه. الرجال أمثاله لا يستطيعون منع أنفسهم من القيام بذلك وسيعبثون مع أي كان.

ولم يكن هذا كل شيء، مجرد مرح لا ضرر منه... فمن الواضح أن بيرس برانسون هو من النوع الذي لا يمكن تشجيعه. ذلك النوع العابث غير المسؤول، الذي لا ينظر إلى الحياة أو النساء بجد. على أي حال، ليس مضطراً أن يأخذ شيئاً بجد، لا سيّما أنّه يملك المال وأنّه تربى على أنه ابن عائلة برانسون الوحيد. أتراه أراد أن يدفع أندرو إلى الغيرة... لمجرد التسلية، وليس لأنه مهتم بها. هي لا تنكر أنها أحست بشيء للحظة، ولكن السبب فقط شعورها بأن هذا يرضي غرورها، ولو بشكل مؤقت، وهذا كل شيء. لن يقبل يدها كل يوم رجل، فحتى الدون جوان، وأمثاله الذين تكرههم، لديه سحر خاص، وخاصة هذا «الدون جوان» بعينيه الضاحكتين.

وسرت فيها قشعريرة خفيفة وهي تتذكر فمه يضغط على يدها.

قال أندرو غاضباً: «إذا كنت تريدين المرح، يمكنك المرح معي».

تنهدت: «إذن توقف عن التجهم، فأنت لا تبدو مرحاً البتة وأنت في هذا المزاج».

في الواقع، ما كانت كلمة مرح تصلح لاستخدامها في وصف أندرو أبداً لأنه لا يحس بالمرح قط. لكنه يمكن أن يكون بطريقته الخاصة فاتناً ومتفهماً، ورفيقاً جيداً حين لا يكون متعالياً يحاول التأثير في من حوله. وهو كذلك

ذكي جداً، وماهر، وله قسمات جميلة بارزة يحسده عليها أي محامي شركات.

ابتسم أندرو فجأة: «أنت على حق».

ونظر حوله كأنما يريد أن يتأكد أن أحداً غيرها لمح تجهمه: «إنهم يقدمون الغداء. واو، أشبعي نظرك من الكركند والقريدس الكبير الحجم! هل ستأتين؟».

مع تقدم النهار، وجدت تيس أنها بدأت فعلاً تستمتع، بالرغم من خيبة الأمل التي منيت بها لعدم وجود جوليوس برانسون هناك. كان النشاط في الميناء تسلية مستمرة، مع الهبوط بالمظلات، وسباق الزوارق، والرياضات المائية، وغيرها من سباقات المراكب الخيالية الرائعة. وكانت شمس أواخر كانون الأول ترسل أشعتها على وجهها، والهواء اللطيف يتخلل شعرها فتشعر بإحساس لذيذ، يجعلها تدرك أنها لم تحصل على أوقات راحة واسترخاء في السنوات الأخيرة.

ولدهشتها، وجدت نفسها تندفع نحو الضيوف الآخرين على متن اليخت، فقد كان معظمهم مثيرين للاهتمام، أناساً حقيقيين، مستعدين للتكلّم في مختلف المواضيع. وأعجبتها بشكل خاص فوبي برانسون وخطيبها توم لويد، فقد بدت لها فوبي بسيطة، وطبيعية، لم يفسدها مال أبيها، ولا مركز أسرة برانسون الرفيع، على عكس أخيها المستهتر العابث، پيرس.

لم تكن تيس متأكدة من سبب إحساسها القوي بوجوده، وبقي يظهر أمامها بين حين وآخر، بابتسامته الماكرة، ليرمي ملاحظة جذلى ترسم ابتسامة طوعية على شفتيها، وشبح ابتسامة على شفتي أندرو. ربما كانت تريد التفكير أنه طيب لمجرد أنه ابن جوليوس برانسون، ولو تبين أن جوليوس هو والدها لكان پيرس إذن، بالرغم من أنه ليس على قرابة دم معها، بمكانة أخيها الذي لم تحظ به يوماً.

وعضت شفتها، شاعرة بقلق غريب في داخلها... لكن ردة فعلها له لم



تكن ردة فعل أخت لأخيها، بل كانت بعيدة جداً عن هذا!

وتنهدت بنفاد صبر. حسن جداً، كيف يمكن لها أن تشعر «بالأخوة» نحوه؟ إنه غريب عنها! حتى ولو ثبت أن جوليوس برانسون هو والدها، واعترف لها بهذا فسيعارض أن تعرف عائلته بوجودها، بعد إبقاء أمرها طي الكتمان لسنوات طويلة. هذا عدا عن كونه غير مستعدٍّ للاعتراف بها علناً. فربما بقي صامتاً بخصوصها، لأنه لم يرغب في جرح شعور زوجته بالكشف عن ماضيه. لذا، من غير المحتمل أن يرغب في جرحها الآن. هذا عدا تعرضه للفضيحة والإحراج.

سألها أندرو مقطباً جبينه: «ولم التنهد؟ هل سئمت؟».

فجاء نفيها سريعاً: «لا! أنا أستمتع كثيراً».

وهذا صحيح، فلسبب ما أحست اليوم أنها أكثر حيوية من أيّ وقت مضى. وأقنع البريق في عينيها أندرو أنها تعني ما تقول، لكن هذا جعله يتجهّم أكثر.

فسألها بارتياب: «هل تقولين لي إنك أُعجبت بحياة الترف؟ أم بالرفقة على المركب؟».

واستدارت نظرته لتستقر على پيرس برانسون.

تظاهرت تيس أنها لم تلاحظ حركته، مصممة ألاّ تدع پيرس برانسون يدخل بينهما، وقالت ممازحة، وهي تدس ذراعها بذراعه: «أنت تصطاد في الماء العكر أندرو، بالطبع هي الصحبة، صحبتك أنت».

فدغدغها بصوت ماكر: «هل هذا صحيح؟».

* * *

## ٢ ـ الغاية تبرر الوسيلة

كان الوقت متأخراً حين وقفت تيس قرب السياج تشاهد الألعاب النارية تتصاعد وتنفجر في سماء الليل المرصّعة بالنجوم، فوق ميناء «دارلينغ». ومرة أخرى وجدت نفسها وحيدة، فقد اعتذر أندرو لينزل إلى الأسفل.

وسمعت صوتاً مخملياً يهمس في أذنها: «واضح أن خطيبك من النوع المتملك».

فأحست برجفة تسري فيها. لكن تعبير وجهها كان بارداً حين استدارت لتواجه الرجل الواقف خلفها: «أندرو ليس خطيبي».

وتساءلت في نفسها عن سبب تلهفها لإعلام بيرس بهذا.

وتحدتها العينان الماكرتان: «لكن، ألستما متفاهمين؟».

أخذت نفساً عميقاً حذراً... عليها ألاّ تشجعه هنا... لعل السبيل إلى ذلك هو الكذب بالقول له إنهما «متفاهمان». كانت تشعر بالانجذاب نحوه، ولا سبيل إلى إنكار هذا، فهذا الشعور موجود، لكنه ليس سوى انجذاب عابر، تشعر به أيّ فتاة نحو رجل جذاب مسلٍ. واليوم، هي في هذا المزاج، لكنها لا تريد أن يتطوّر هذا، فقد كانت سمعةُ بيرس برانسون كزير نساء، محب للمرح، وملاحقة النساء، تثير اشمئزازها. وحذرتها عيناه الماكرتان أن تبقى بعيدة عنه، فهو ليس من صنفها.

مع ذلك، قد يتيح لها اعجابه بها ومصادقتها فرصة لقاء جوليوس برانسون... فهي يجب أن تلقاه... يجب أن تعرف الحقيقة! حتى ولو كان



لا يريد لها أن تعرفها. إنها راشدة ناضجة، ولن تفعل شيئاً أحمق، ولا داعي كي يخاف من أن تنشر الحقيقة، فهي لن تخبر أحداً، إذا كان هذا ما يريد.

قالت أخيراً بجفاء: «أندرو وأنا لسنا متفاهمين، وهو يرغب بذلك، لكننا حتى الآن...».

وهزت كتفيها، من دون أن تكمل الكلام.

ـ إذن، أنتما لا تعيشان معاً؟

فهزت رأسها نفياً، وتمتمت: «ما هذا؟ استجواب؟ وهل تعيش أنت مع أحد؟».

لمعت أسنانه بابتسامة: «ليس في الوقت الحاضر، لا».

ووميض بريق جائع في عينيه السوداوين المتراقصتين، فأضاف: «إذن، الطريق خالية، أليس كذلك؟».

خالية؟ وانحبست أنفاسها... فرفعت ذقنها وهي تنتظر انتظام ضربات قلبها. إذن، هو على استعداد للحلول مكان أندرو، أليس كذلك؟ إذن أندرو على حق في ما قاله عنه، إنه جائع دائماً للنساء، وإذا كان يظن...

وكبحت مقتها، فقد تكون هذه الفرصة التي ترجوها، الفرصة لتقترب منه، من جوليوس برانسون! ونظرت إليه بحنق، ولمعان الاستفزاز في عينيها. فقررت أن تلعب الدور معه، وسألت: «وهل تمانع إذا لم تكن خالية؟».

اعترف دون خجل: «على الأرجح لا».

وحاولت ألاّ تُظهر اشمئزازها. ومرة أخرى اعترفت أن أندرو على حق، فهو على استعداد لمطاردة أي كائن يلبس تنورة! أو في مثل حالتها، بنطلوناً ضيقاً!

ورفعت ذقنها قليلاً: «أنا أعيش في منزلي الخاص، وأندرو يعيش في منزله. لكل منا حياته، لكنه طلب مني الزواج».

وأحست بضميرها يخزها. لو سمعها أندرو الآن، لرأى أنها ليست

أفضل من بيرس! وربما هي ليست هكذا...

- لكنك لم تقولي نعم.

- لا، ليس بعد.

- لكنك تفكرين في الأمر؟

- لا! أعني... اسمع، أنا لست ملتزمة مع أندرو ولا مع أي شخص كان، ولقد أوضحت له هذا. هل هذا ما تريد أن تعرف؟

فالتمع شيء في أعماق عينيه السوداوين، ولثانية ظنت أنها خيبة الأمل، أو حتى الاحتقار، وليس الرضا لقول ذلك. وأحست بالفزع... هل بدت، من خلال كلامها هذا سهلة؟ فللرجال مثل بيرس برانسون، مقاييس مزدوجة، يمكن أن يلعبوا بسرعة ليخسروا، لكنهم يفضلون أن تلعب النساء دور صعبات المنال، وأن يكون لهن بعض العزة بالنفس.

حسناً جداً، إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لإثارة اهتمامه، فستسلكها.

واستدارت فجأة: «الأفضل أن أذهب لأبحث عن أندرو».

وأحست بأطراف أصابعها تقفز حين أطبقت أصابعه على ذراعها.

- لماذا؟ ظننتُ أننا بدأنا لتونا نجد قواسم مشتركة.

استدارت بحدة لتواجهه، وسألت ببرود: «قواسم مشتركة؟».

- أجل، أنت لست ملتزمة، وأنا كذلك، وبما أن معي بطاقة إضافية للعرض الخيري في دار الأوبرا ليلة الجمعة، فكرت في دعوتك للمجيء معي.

وأخذت نفساً عميقاً، فلم تتذكر آخر مرة ذهبت فيها إلى الأوبرا، ولكنها كانت على يقين أنها لم تكن بصحبة أندرو الذي يجد الأوبرا مضجرة كثيراً.

التوى فم بيرس بالرضا: «آه! أرى بريق الاهتمام.. إذن تروق لك ليالي المهرجانات الاستعراضية؟».

لو اعترفت له أن هذه المناسبات الاجتماعية المتألقة لا تهمّها، خاصة أن



الناس يحضرونها لمجرد التباهي، فقد يغير رأيه باصطحابها، وقد لا تراه مرة أخرى.

وسألت بخفة: «هذا يعني أنّه عليّ ارتداء ثياب سهرة، كما أعتقد؟».

فرد بلهجة متسامحة: «حسن جداً، بالطبع، تأنقي قدر ما تريدين».

لكن لهجة غريبة شابت صوته، فلم تعرف لماذا.

- من المتوقع أن نظهر نحن الرجال في ربطة عنق سوداء، لذا، هيا، خذي حريتك في جذب أنظار الجميع، إذا كان هذا ما تريدين. سنجلس في الصف الأمامي مع دائرة الملابس الأنيقة، وسيلي هذا عشاء في فسحة الاستقبال التي تطل على الميناء.

وصمت يراقبها، وعيناه تبرقان كنجمتين ساطعتين.

اللعنة، لقد جعلته الآن يعتقد أنها تريد أن تزين نفسها لتلفت الأنظار وتجلس في الصف الأمامي!

وابتسمت بضعف: «والأوبرا؟».

ضحكت عيناه: «إذن، أنت مهتمة بالأوبرا كذلك؟ إنها إعادة لأوبرا «قصص هوفمان» وسترتاحين إن...».

فصاحت متهورة: «أوه، لكن هذه من أفضل عروض الأوبرا عندي، ولدي تسجيل لها، مع جون سوذرلاند وبلاسيو دومينغو... هل أنت من هواة الأوبرا؟».

هل هو ذاهب لأنها مناسبة استعراضية؟

هز كتفيه: «أنا لا أذهب دائماً، ولطالما فضلت السينما والمسرح، ولم أكن أنوي الذهاب إلى هذه الحفلة، إلى أن فكرت أنك قد تهتمين بالمجيء معي».

إنه يغريها بعرض ليلة استعراضية فخمة، وفرصة لارتداء ملابس أنيقة. واشتد ضغطها على فمها دون إدراك، فهو لا يعرف عنها شيئاً!

وقالت مبتسمة: «حسناً، هذا لطف كبير منك، وأنا مهتمة جداً لأنني أحب الأوبرا، ولو أنني لم أحظ مؤخراً بالفرصة لرؤيتها».

فسألها: «أبسبب عملك؟ أم أن أندرو ليس مهتماً بما يكفي ليأخذك؟».

- الاثنين معاً.

مع أن أندرو كان مستعداً لحضور استعراض خيري، حيث يعرض نفسه أمام رواد الأناقة، مختالاً في الردهة خلال الاستراحات بثياب السهرة، يحادث الأثرياء والمشاهير.

- قد لا نبقى طويلاً بعد عشاء الأوبرا، إلا إذا أردت ذلك. فمثل هذا العشاء ينقلب عادة إلى تبادل حديث اجتماعي ممل، لذا أفضل أن آكل في مكان هادىء، حيث نجلس ونستمتع.

هو يعني نحن الاثنين فقط... وجف فمها فجأة. فيمَ يفكر؟ أتراه يتوقع شيئاً مقابل الأمسية التي يعرضها عليها؟

من الأفضل وضع بعض القواعد الأساسية، الآن وهنا.

فقالت تهز كتفيها، متجنبة عينيه: «حسناً، لقمة سريعة ربما، إذا لم يكن الوقت متأخراً، فأنا أبدأ العمل باكراً».

رفع رأسه: «وهل تعملين يوم السبت؟».

أشاحت نظرها عنه، اللعنة! لقد نسيت أنها ليلة الجمعة.

قالت كاذبة: «لدي عمل يوم السبت القادم».

إذ كان هناك أوقات تقصد فيها عيادتها صباح السبت، لإكمال بعض الأعمال المكتبية.

- أوه، مؤسف حقاً! إذن لن تستطيعي مرافقتي للإبحار يوم السبت.

واستطاعت سماع النبرة الهازلة في صوته، فالعينان الماكرتان كانتا تسخران منها. لم يصدقها.. إنه يحاول قبول خدعتها، يغريها، يحاول أن يرى ما إذا كانت ستغير رأيها، وهو متأكد أنها تلعب لعبة تذاكٍ من نوع ما... لعبة صعبة المنال، على أمل أن تثير اهتمامه!

تجعد جبينها قليلاً... لطالما كانت صادقة ومنفتحة مع الناس. لم تنغمس يوماً في الألاعيب فهي تفضل الوصول إلى الهدف مباشرة. فضلاً



عن هذا، لم يكن لديها الوقت للتلاعب. لكنها ابتلعت ريقها وهي تشعر بالقلق، أوليس هذا ما تفعله الآن بالضبط؟ ألم تكن تستخدم إغواءها الأنثوي لتسترعي اهتمام بيرس برانسون؟ ألا تتلاعب معه، وتستغله على أمل لقاء أبيه؟

تمتمت: «لا، شكراً، حسن جداً، أنا...».

فقاطعها بيرس بنعومة: «الأفضل أن تعطيني عنوانك ورقم هاتفك».

وأخرج دفتراً صغيراً أسود من جيب بنطلونه.

وحاولت ألاّ تظهر أي ردة فعل، فأمثاله يحملون دائماً دفتر عناوين أسود صغير! أتساءل كم اسم امرأة فيه! كل واحدة لها تصنيفها من واحد لعشرة!

وظهر أندرو حين كان بيرس يسجل رقم هاتفها: «أنا آسف، فقد أخرني أحدهم وأنا عائد إلى هنا».

وتركزت عيناه اللوزيتان على الدفتر الأسود، وحاول ألاّ يظهر أي ردة فعل، لكن تصلبه فضح أمره.

قال بيرس: «لا تقلق، لقد كانت تيس بين أيد آمنة، أؤكد لك».

فأجاب أندرو بامتعاض: «شكراً».

وبدا له أن بيرس يبعث الأمن في النفوس مثلما فعل الذئب في كوخ ذات القبعة الحمراء.

ثم قالت تيس بعفوية: «لقد عرض عليّ بيرس بكل لطف تذكرة إلى الأوبرا ليلة الجمعة».

ما من مجال لإخفاء الأمر عن أندرو... وأرادت أن يعرف بيرس هذا:

- تعرف كم أحب الأوبرا، وهذا العرض لهوفمان الذي أحبه كثيراً، ولا تتاح لي الفرصة للذهاب إلى الأوبرا دائماً.

فتدخل بيرس: «خاصة إلى عرض خيري خاص، كما أعتقد».

وأخذت تيس نفساً عميقاً صامتاً، اللعنة! لماذا يجب أن يقول هذا لأندرو؟ هل يعرفه جيداً إلى هذا الحد؟ هل يعرف أن فكرة تفويت فرصة

حضور ليلة استعراضية تحضرها شخصيات مهمة، سوف تكدره أكثر من تفويت العرض ذاته؟ هل يحاول أن يجعل أندرو يغار؟.

فرمقت پيرس بنظرة متجهمة. لكنه ابتسم قائلاً: «أستميحكما عذراً، من الأفضل أن أتابع واجبات الضيافة.. سوف نصل إلى البر خلال دقائق».

فتمتم أندرو بتجهم مع ابتعاد پيرس، ممسكاً بذراع تيس: «الآن وقد عدت، يتذكر واجبات الضيافة. ما هذا الكلام عن ذهابك إلى عرض أوپرا خيري معه؟ ألا تعرفين سمعته؟ هل أنتما ذاهبان وحدكما؟».

فنظرت إلى يده المطبقة على ذراعها، ولم تجبه حتى خفت قبضته.

ثم سألته محذرة: «أي سؤال تريد مني الإجابة عنه أولاً؟».

- أجيبي عنها كلها!

- حسناً، أجل أنا ذاهبة معه إلى الأوپرا. وأنا أعرف سمعته. لكنني لا أعرف من سيذهب، هل اكتفيت؟

- لا، لم أكتفِ! هل سيروق لك خروجي مع امرأة أخرى؟ مع أخته مثلاً؟

- أتعني فوبي؟ لا مجال للمقارنة، أليس كذلك؟ ففوبي مخطوبة وستتزوج.

- نحن مخطوبان، أو على وشك...

- لا أذكر أنني وافقت على الزواج بك، أو ألزمت نفسي بك مدى الحياة.

- إذن، ألا يعني لك خروجنا معاً بانتظام، وتقاربنا لأشهر، شيئاً؟

- صداقتنا كانت تعني الكثير لي أندرو، لكنك لا تملكني، وأنا لا زلت حرة.

وأدركت أنها استخدمت صيغة الماضي في كلامها.

فقال: «ظننتك تحبينني!».

- بل أحبك... أنت عزيز جداً عليّ أندرو... كصديق... لكن ليس وأنت في هذا المزاج. لا تعتقد لمجرد أن رجلاً دعاني إلى الأوپرا، أن



لدي خططاً للقفز إلى أحضانه!

وضاقت عيناه اللوزيتان، فقال: «أراهن على أنه يخطط للقفز إلى فراشك لو أعطيته نصف فرصة. ما الذي تحاولين فعله تيس؟ إذا كنت تريدين الذهاب إلى الأوپرا إلى هذا الحد، فلماذا لم تطلبي مني أن آخذك؟».

- لأنني أعرف أن الأوپرا تضجرك.

- وتظنين أنه مهتم بالأوپرا؟ إنه مجرد عذر لملاحقتك، تيس.. إنه يلاحق أي امرأة جميلة الوجه تلفت انتباهه، خاصة إذا بدت له صعبة المنال أكثر من غيرها. بالنسبة إلى رجل مثله، ستزيد محاولة سرقتك مني بعض النكهة على ملاحقتك، فأنت تشكلين نوعاً من التحدي له، وسيلي هذا إرسال الزهور إليك، وعشاء حميماً لاثنين. وسيستخدم ماله وسحره ليغويك، كما يستخدمهما ليجذب أنظار كل اللواتي يلاحقهن! ثم سيرميك، ليلاحق أخرى!

فأرجعت تيس رأسها نحو الوراء ساخطة وخصلاتها الملتهبة تتراقص على وهج أنوار المركب: «اسمع يا أندرو.. أنا ذاهبة معه إلى الأوپرا فقط! ولن أقفز إلى أحضانه!».

فصر على أسنانه بوجه قاتم: «ربما تحبين هذا».

- لن أقف هنا لأستمع إلى هذا الكلام!

وأفلتت منه، متجهة إلى أقرب مجموعة من الضيوف، مرتاحة أنّ لا أحد قريب منهما ليسمع جدالهما، هامسة من فوق كتفها: «شكراً لك لإفسادك يوماً جميلاً!».

لماذا تحمر هكذا؟ إنها تعرف تماماً سمعة پيرس برانسون الماجن، ولا تحتاج إلى أي تحذير منه، لكن كيف تفسرُ لأندرو أن ليس پيرس برانسون من يهمها بل الرجل الذي رباه كابن له؟

حاولت تيس أن تحافظ على برودها، وهي مع أندرو، يعتذران من پيرس وفوبي، ويشكرانهما قبل النزول إلى الشاطىء، والاتجاه نحو سيارتهما.

أمسك بيرس بيدها بجرأة وهي تضيف شكرها إلى شكر أندرو، قائلاً: «سأتصل بك خلال الأسبوع».

ولم يحاول خفض صوته، وكأنهما يخططان إلى اجتماع عمل، لا إلى ليلة استعراضية معاً! وأطالت عيناه الضاحكتان النظر إلى عينيها، مما حمل فوبي على النظر إلى أندرو. فأيقنت تيس، بعد أن اتجهت نظرة فوبي إليها بحيرة، أنها لاحظت تعابير أندرو المتوترة وتساءلت عمّا يخططان.

جلس أندرو صامتاً في السيارة المتجهة نحو منزل تيس التي لم تحاول أن تخرجه من اكتئابه، فقد كان رأسها مليئاً بأفكارها الخاصة.

وحين أوقف السيارة أمام الشقة في شمالي سيدني، فتحت الباب وهي تتثاءب بثقل.

ـ حسناً، لقد كان يوماً رائعاً! سأنام كالطفل، فلا شيء يضاهي يوماً في البحر لـ...

فقاطعها أندرو بصوت منخفض محزون: «ألن تَدْعِيني للدخول؟».

صمتت قليلاً: «ليس الليلة يا أندرو، فالوقت متأخر. هل تمانع؟».

ـ بسببه، أليس كذلك؟ تفضلين النوم لتحلمي به؟

ـ أوه، أندرو، لا تبدأ هذا مجدداً! أنت سخيف!

ـ حقاً؟ إذا كنت لا تأبهين به، فلماذا لا تدعينني أدخل؟

ـ قلت لك، أنا متعبة وأريد أن أنام!

أخرجت ساقيها من السيارة. فأمسك بذراعها: «ماذا عن ليلة الغد إذن. ستقضين ليلة الغد معي؟».

استدارت لتواجهه مستعدة أن ترضيه بعناق سريع قبل أن تهرب. لكن أندرو أمسك بخصرها وشدها إلى الوراء لتلتصق به في عناق قاسٍ.

فصاحت محتجة، وقاومت تحرر نفسها من عناقه، وتمكنت من الابتعاد عنه صارخة: «دعني وشأني، اللعنة عليك!».

وحررت نفسها منه، ثم خرجت من السيارة، وقالت بحدة: «عمت مساء، أندرو!».



فقفز أندرو من وراء المقود وركض وراءها.

ـ تيس، أنا آسف! لقد فقدت صوابي!

وكان في صوته رنة ذعر.

ـ الأمر، أنني، اللعنة! لا أريد أن أخسرك!

توقفت تستدير لتواجهه: «أندرو، أعتقد أن هذا أفضل...».

وتنهدت: «... لم لا نبتعد عن بعضنا قليلاً؟ فالأمور غير ناجحة بيننا.. المسألة ليست مجرد عناق، وليس بيرس برانسون، أو أي شيء حدث اليوم... لم أعد واثقة من مشاعري. وأعتقد أن من الأفضل أن نتوقف الآن».

وإذ صدمته هذه الكلمات، قال بصوت أجشّ: «السبب هو بيرس برانسون، لم لا تعترفين بهذا؟ أنت تحاولين فقط التخلص مني بلطف.. كوني صادقة تيس! تريدين إبعادي عن الطريق لأنه يعجبك!».

فأنكرت بشدة: «لا! هذا غير صحيح! لا شيء من هذا القبيل!».

لكن كيف لها أن تخبره بسبب التقرب من بيرس برانسون؟ لا تستطيع إخبار أحد... لا يمكنها ذلك!

وتابع قائلاً: «أليس صحيحاً؟ إذن لماذا تبعدينني عنك الآن؟ بعد دقائق فقط من دعوة بيرس برانسون لك؟».

فهزت رأسها، لا تعرف ماذا تجيب. هل كانت فعلاً تخطط للانفصال عنه؟ ولو أن الأمر كذلك، فلِمَ قامت بذلك هذه الليلة؟ هل لأنها بحاجة أن تركز كل طاقتها على المهمة التي أمامها؟ أم أن الأمر مجرد إحساس بالذنب نحو أندرو لأنها تعرف أنه ليس من العدل التورط مع رجلين في آن واحد؟

هذا لا يعني أنها تنوي التورط مع بيرس برانسون، بل التقرب منه بما يكفي لتعرف المزيد عن جوليوس برانسون، ولقائه.

فهي مستعدة للتلاعب مع بيرس وقبول الدعوات منه، فهذا النوع من التصرف يشبع غرور بيرس برانسون، وهي مستعدة لمجاراته في لعبته الخاصة لتبلغ ما تريد، وقد يعلمه هذا درساً لاذعاً!

تجهم وجه أندرو: «إذن، هو بيرس برانسون؟ لأنه قادر أن يقدم لك أكثر مما أستطيع!».

فواجهته باحتقار حاد في عينيها: «إذا كنت تظنني كذلك يا أندرو، فمن الأفضل أن نفترق!».

لكنه كان أصمّ وأعمى أمام المنطق: «لم أكن أعتقد أنك من النوع المتقلب يا تيس. وأنك صائدة ثروات! يا إلهي! يجب أن أحذره ألاّ يثق بك وأنك تسعين وراءه لتحصلي على ما تستطيعين منه!».

فاحمر وجهها، ولم تستطع رد الاتهام. إنها فعلاً تسعى وراء بيرس برانسون لتحصل منه على ما تريد، لكن ليس ماله، ولا الحياة الرغيدة أو أي شيء يمكنه أن يوفره لها، بل لأنه المفتاح إلى شيء أهم بكثير لها، إلى حقيقة أصلها! ويجب أن تبقى بقربه، وبأي وسيلة تعرفها.

وتراجع أندرو باحتقار: «أيتها السافلة! لا يمكنك حتى الإنكار! حسن جداً، حظ سعيد لك! لكن لا تعودي إليّ زاحفة حين يتخلى عنك، لأن هذا بالضبط ما سيفعله!».

***



## ٣ ـ ثريّ ولكن...

كان بيرس قد أعلمها أنه سيصطحبها عند الساعة السابعة. وفي السابعة والثمانية دقائق بدأت تيس تربت قدمها على الأرض، ظناً منها أنه ليس متلهفاً لرؤيتها مرة أخرى!

ولكنها ما لبثت أن رأت، بعد ثوان قليلة، سيارة جاكوار تتوقف عند المفرق خارج منزلها. ثم رأت رأس بيرس الأسود الشعر يبرز منها، فتركت الشرفة الأمامية وخرجت لمقابلته. لم ترغب في أن تبدو متشوقة أكثر من اللازم بانتظاره عند البوابة، فرجل مثل بيرس برانسون سيمل بسرعة من امرأة سهل الحصول عليها، وهي لم تكن تودّ أن يمل منها وينبذها... ليس بعد!

كانت أول كلمات قالها بلهجة مندهشة: «آه، أنت جاهزة».

أحست بحنجرتها تختنق وهو يتقدم لملاقاتها بسترة السهرة السوداء، وقميصه الأبيض وربطة عنقه. كان شعره الأسود مسرّحاً بترتيب، بدلاً من أن تنفخ فيه الريح كما كان ذلك اليوم، ممّا جعل أصابعها تتشوق لأن تمتد وتتلمس الخصلات القليلة المنتشرة على جبينه الأسمر.

وابتلعت ريقها بصعوبة، متمتمة: «ألم تتوقع مني أن أكون مستعدة؟».

فضغط على يدها بخفة، مرسلاً رجفة ساخنة في ذراعها. وتراقصت عيناه السوداوان وهما تلتقيان بعينيها: «أنا دائماً أعطي المرأة بضع دقائق إضافية، فأنا أجد أن النساء بحاجة إليها».

يا له من رأي حول النساء، إنه يفصح الكثير عن نوع النساء اللواتي

يرافقنه عادة!

فأجابته بحزم: «ليس أنا».

وسحبت يدها من يده وهما يسيران إلى سيارته: «لن أرغب في المخاطرة بالوصول متأخرة إلى دار الأوبرا، لأجد أن المشهد الأول قد فاتني».

ـ أتعنين أنك لا تهتمين إلا للعرض؟ ولا تهتمين لو فاتك التجمع الراقي الاجتماعي في البهو؟

فسألته بشيء من خيبة الأمل: «وهل هذا ما سيفوتك أنت؟».

ألا يختلف عن أندرو؟

قال وهو يفتح لها الباب، قبل أن يستدير إلى مقعد القيادة: «نحن نتكلم عنك يا تيس، لا عني. وأنا مسرور لأنك لم تتأنقي أكثر من اللازم، فبعض النساء يتجاوزن الحد في مثل هذه الليلة الاستعراضية».

النساء التي يخرجهن معه عادة، لا شك!

قالت بجفاء: «أنا مسرورة لموافقتك».

ـ أنا أكثر من موافق. تبدين مذهلة يا تيس، فبعض النساء يدركن أن البساطة والأناقة فيهما سحر يجذب أكثر من كل التألق والثياب المبالغ فيها، والكثير من الجواهر المبهرجة، أو سلاسل الذهب التي لا تحصى، والأساور التي تصدر أصواتاً طوال العرض.

وابتسمت تيس، مرتاحة لإعجابه باختيارها، فقد كانت تخشى ألا يجد فستانها الأسود البسيط، بأكمامه المتدلية وياقته المرتفعة المربعة، أنيقاً. وحاولت تزيينه ببعض الحليّ الذهبية والفضية المتواضعة. لكنها بدت رخيصة، دون ذوق فاستبدلتها ببروش بسيط من حجر كريم منقوش، أهدتها إيّاه أمها يوم تخرّجها، مع قرط مماثل.

وقالت: «الطقس حار جداً ليثقل المرء نفسه بالجواهر والذهب، فنحن في سيدني، وليس في لندن أو ميلانو».

ـ أنت ستشعين في أي مكان يا تيس، كما أنت. لستِ مضطرة لارتداء الجواهر أو الذهب أو آخر الموديلات لتبرزي. شعرك زينة تكفي، إنه كالتاج



الذي يبهر البصر، إطار رائع لوجهك الرائع. وقامتك الطويلة ملوكية أيضاً.

وأطلق صفيراً منخفضاً: «أنت لست بحاجة إلى التبرج الزائد تيس».

وذهلت تيس غير مصدقة هذا الإطراء الكثير.

تمكنت وبطريقة ما أن ترد بلهجة خفيفة: «مع المزيد من هذا الغزل يا بيرس، سوف تدير رأسي».

هل يظن أن عليه مغازلتها؟ هل هذا ما تتوقعه منه النساء عادة؟ ولماذا بحق السماء تستجيب إلى هذا المديح؟ هل لأنه يشعرها بالرضا؟ على أي حال، كانت تريد أن تجذبه، أليس كذلك؟

رد بيرس: «طالما أن رأسك يستدير نحوي، فلن أمانع».

وتعمدت أن تشيح بوجهها عنه لهذا الكلام، لتنظر إلى خارج نافذة السيارة، إلى لا شيء بالتحديد.

فقال ببطء: «هذا لا يعني أن القطعة المناسبة من الحلي لن تناسبك».

وأحست أنه التفت إليها مقيّماً، حتى وهو يُبقي اهتمامه على الطريق أمامه.

ـ فبعقد ماسي بسيط مع هذا الفستان، سوف تلفتين أنظار الجميع.

أخذت نفساً عميقاً، واعتراها شعور غريب بأنه يتصيد في الماء العكر... يحاول أن يعرف ما إذا كانت تحب الجواهر في سرها.. الجواهر الحقيقية، الماس، ولا بد أنه يعرف أنها لا تستطيع تحمل ثمنها. فصحيح أن مهنتها ناجحة، لكن قد كلفها كثيراً إنشاء عيادة خاصة بها، وهي ما كانت لتستطيع ذلك لولا مساعدة المتبرع المجهول...

وأدركت أنه يحاول رشوتها، فاشتد ضغطها على شفتيها... وكأنه يقول لها: دعيني أستمتع بك، وسأكافئك بشكل كبير.

كانت نظرته الآن قد انصبت على زحام السير المتقدم نحو دار الأوبرا، لكن كان لديها إحساس بأنه لم يكن مركزاً، وأن كل أحاسيسه لا تزال حية تنتظر، وتنتظرها لتقوم بالاعتراف الذي يتوقعه. على أي حال، أوليس

لالماس أفضل صديق للفتاة؟ والجميع يعرف أن «برانسون» عائلة ثرية بما يكفي لشرائه!

زفرت أنفاسها، تقول بحدة: «منذ ثانية، قلت إنني أبدو مذهلة دون حلى مبهرجة! وأنا لا أسعى وراء المزيد من المديح! هل يمكننا أن نتحدث عن شيء آخر؟ كيف حال والدك؟».

استدار ينظر إليها، وقد ضاقت عيناه، وفي أعماقهما السوداء نظرة مبهمة.

- إنه يستعيد عافيته، وسيغادر المستشفى في الصباح. بالرغم من كل النصائح الموجهة إليه للبقاء هناك، يصر على العودة إلى البيت.

إذن، سيكون في بيته غداً، ليستعيد عافيته. بيرس سيزوره هناك دون شك، ولو أراد بيرس رؤيتها أكثر، فقد، يأخذها معه في إحدى زياراته لرؤية والده!

وسألت بخفة: «والداك يعيشان في مكان ما على الميناء، أليس كذلك؟».

- في «بونيت بيير»، لكنه لن يذهب إلى هناك...

وصمت وهو يتجه نحو دار الأوبرا. كادت تموت شوقاً لتسأل إلى أين سيذهب والده، وشعرت بالغصة لأنه سيغادر سيدني... لكنها إذا بدأت بطرح الأسئلة فسوف تثير شكوكه، لا محالة.

وحين انتهى العرض، سألها بيرس وهما يتركان مقعديهما: «هل استمتعت بها؟».

فاستدارت نحوه مبتسمة: «نعم، كانت رائعة! الموسيقى، الغناء، المشاهد، كل شيء كان رائعاً لا سيّما تلك الوصلة الغنائية في المشهد الثالث، بين أنطونيا ودكتور ميراكل. أنا أتأثر بها دائماً، فأبكي وأقشعر».

أضافت حماستها الشعلة إلى زرقة عينيها النائمة، وأكملت: «وهل استمتعت أنت؟».

بدا كأنه دهش قليلاً للسؤال، وكأنما جاء بها إلى هنا ليرضيها ويؤثر



فيها، فأجاب، وعيناه المبتسمتان تنظران إلى عمق عينيها: «كثيراً».

وأشاحت بوجهها، موقنة أنه يريدها أن تظن أنه تمتع بصحبتها، لكنها كانت تعرف أن هذا غير صحيح، فقد تمتع بها فعلاً، ولقد أحست بهذا طوال العرض المذهل. في الواقع كان مستغرقاً جداً، ومتأثراً جداً، مثلها تماماً.

قالت: «أعرف أنك استمتعت، فأنت لم تنم خلال العرض».

- هل هذا ما كان يفعله أندرو عادة؟ ينام؟

وتمنت لو أنه لم يذكرها بأندرو، فابتسمت. لأنها ما زالت تشعر بالذنب لانفصالها عن أندرو فجأة.. لقد جرحت كرامته، ناهيك عن قلبه، حين انفصلت عنه في اليوم الذي التقت فيه بيرس برانسون، لكن الوقت قد فات الآن، ولا يمكن أن يكون أندرو قد تحطم كثيراً، وهي لم تسمع عنه شيئاً منذ تلك اللحظة.

قال بيرس وهما يخرجان خلف أخته فوبي وخطيبها: «لقد رأيته منذ يومين».

- وهل كلمته؟

- بالتأكيد، لقد التقينا في المحكمة.

رفعت رأسها إليه متسائلة وهي تكاد تموت شوقاً لتسأل عما قال، وعما إذا كان اللقاء حبياً. فلو أن أندرو على المزاج الذي كان فيه حين رأته آخر مرة، لنفذ تهديده وحذر بيرس منها.. عضت شفتها... لا يمكنها أن تسأله هنا على مسامع معارف بيرس كما أن بعضهم كان يناديه ليسأله رأيه بالعرض.

تقدم أحد الرجال من بيرس وهما في الطريق إلى الخارج. وقال ممازحاً: «نحن لا نراك دائماً في مثل هذه الأمسيات الاستعراضية بيرس، وأعتقد أنك لا تحضرها إلا حين تريد إبراز آخر سيدة جميلة تعرفها!».

وغمز تيس، وأضاف مداعباً، ربما ليحذرها: «دائماً فتاة جديدة أيها الشيطان، وفي كل مرة مذهلة أكثر من التي سبقت.. يجد المرء صعوبة في

ملاحقة أخبارك!».

فتمتم بيرس شيئاً مع ابتعاد الرجل، وضحكت تيس وقالت: «الحقيقة تجرح يا بيرس، أليس كذلك؟».

وأحست بشيء من عدم الارتياح... هل دعاها بيرس الليلة للخروج معه، ليقدم لها ليلة متلألئة لتتمتع وتتذكر؟ على أي حال، كان أندرو لا يزال في الصورة. ربما كان لديه قواعد أخلاقية وشريفة بالرغم من كل شيء.. ربما يعتقد أنها وافقت على مرافقته لها الليلة لأنها متحمسة للأوبرا وأندرو غير متحمس لها، ولأنها، كمعظم النساء ممن عرفهن، هي على استعداد للتمسك بفرصة حضور مثل هذه المناسبة المتألقة.

اللعنة، لقد بدأت ترى فرص لقاء جوليوس برانسون تتبخر مع الليل.

عليها أن تعلمه بطريقة ما أنها انفصلت عن أندرو، من دون أن يظن أن هذا بسببه، وأنها تلاحقه، فالفتاة يجب أن تلعب بجهد لتأسر اهتمام رجل مثل بيرس برانسون.

كادت تنسى السؤال الممازح الذي سألته، إلى أن فاجأها بيرس بالرد: «كنت أفكر بمشاعرك أنت تيس، يا له من غبي عديم الاحساس!».

وتشابكت نظراتهما... كانت عيناه السوداوان دافئتين وناعمتين وهما تلتقيان بعينيها وتبحثان فيهما. وأحست بدوار تحت نظرته القاتمة المتوّمة، فهذا الرجل يعرف كيف يفتن امرأة، وفتنته تجعل أي امرأة تشعر أنها الوحيدة في العالم التي تهمه، أقلّه في تلك اللحظة. والمشكلة، أن من يملك مثل هذه الفتنة من الرجال قادرون على خداع دزينة من النساء.

لقد قال الرجل: دائماً فتاة مختلفة.

وجمعت تيس شجاعتها لترد بخفة، مع لمسة تحدٍّ في عينيها.

ـ حسناً جداً. يقال إن الإنذار المسبق هو استعداد مسبق. وفي الغد، سيكون هناك امرأة جديدة تتأبط ذراعك دون شك!

فردّ بنعومة: «أشك في ذلك».

وأشاحت بنظرها غير مصدقة، يتملكها احساس مربك.



بعد عشر دقائق من العشاء على أنوار ميناء سيدني المتلألئة، همس بيرس لها: «دعينا نترك هذا الصخب لنجد مكاناً هادئاً نتناول فيه وجبة خفيفة وحدنا».

فأجابته: «هذا يناسبني».

سألها وهو يمسك بذراعها: «هل أنت واثقة أنك لا تمانعين في أن نغادر؟».

وقادها عبر ذاك الحشد الأنيق، عبر مجتمع سيدني العاجي الّذي اجتمع في ذلك المكان.

ـ لا أمانع أبداً.

وتوقفت لثوانٍ تتبادل الحديث المهذب مع أناس لا تعرفهم، مع أنّ المكان كان يعجّ بوجوه معروفة جداً. فقد كان رئيس الوزراء نفسه، ووزير الخارجية هناك، يتكلمان عن العشاء، ويتناولان ما يقدم إليهما من مآكل، ومشارب. كما كان المكان مزدحماً بالناس المتلهفين لمقابلة شخص يعرفونه.. كانت أغلبية النساء يرتدين ملابس فاتنة، للمنافسة. فأحست بالراحة لمعرفتها أن بيرس يشعر بالشيء ذاته. لو كان أندرو هنا، لهرع من مجموعة إلى أخرى، ليتأكد أن الجميع عرف بوجوده.

قد تكون، دوافع بيرس لمغادرة المكان باكراً أكثر من مجرد تفادي هذا الحشد من الناس المهمين، فهو ربما يريد أن ينفرد بها!

سألهما صوت وهما خارجان: «تتسلل هارباً يا بيرس؟».

فاستدارت تيس لتتعرف إلى وجه أشهر مقاول في سيدني.

ـ لا ألومك...

وطافت عيناه بإعجاب على تيس: «لقد كسبت كنزاً هذه المرة.. آه ليتني أتمتع بنصف حظك!».

فتوقف بيرس وردّ متشدقاً: «هذا ممكن.. أعذرنا..».

وابتسم معتذراً: «لقد تأخرنا على موعد آخر».

ثم مد يده بسرعة عندما رفع أحد المصورين آلة التصوير، وقال بحدة:

«لا صور».

وأدركت تيس وهما يصلان إلى السلم، أنهما لم يودعا فوبي وتوم، الضائعين في مكان ما وسط الزحام. لكن لا شك أن فوبي معتادة على هرب أخيها مع صديقته الأخيرة!

وسألها بيرس وهو يخرج بسيارته الجاغوار اللماعة من موقف السيارات: «حسناً جداً. إلى أين سنذهب؟ إلى ملهى ليلي؟».

فهبطت معنويات تيس، لكن إذا كانت هذه هي الطريقة لأسر اهتمام بيرس...

فأجابت وهي تكتم رجفة: «إذا كنت تريد هذا».

ولم تستطع أن تفكر في غير تلك الأنوار المبهرة والموسيقى التي تصم الآذان، والدخان... أرادت أن تذهب إلى حيث تستطيع التحدث مع بيرس، فكيف يمكن لهما الكلام في مكان كهذا؟ ربما لا يريد أن يتكلم. ربما يريد فقط أن يرقص على وقع الموسيقى، إلى أن يوصلها إلى ما تريده.

أحست بحلقها يجف. وقال بيرس معلقاً: «لا يبدو عليك الحماس الشديد. ظننت أن النساء يحببن الذهاب إلى النوادي الليلية».

النساء وليس أنا، فقط الأنواع التي تطاردك... وتنهدت، كل هذا لا جدوى منه، ولن ينجح.. من التلاعب مع بيرس برانسون، إلى التظاهر بشخصية غير شخصيتها، إلى استخدام إغوائها الأنثوي، إلى استغلال بيرس للوصول إلى والده... إنها ترتكب غلطة كبيرة.

وتمتم بيرس: «أفهم، إذا كان تنهدك هو بسبب الذهاب إلى الملاهي الليلية، فأنا أوافقك الرأي. فالملاهي الليلية تضجرني حتى الموت، فهناك لا نستطيع أن نسمع بعضنا البعض... ماذا لو ذهبنا إلى شقتك حيث يمكنك أن تحضري لي بعض القهوة؟».

وتسارعت نبضات قلبها... هل يريد القهوة فقط؟ أن يتكلم فقط؟ أم أنه يفكر بأشياء أكثر دفئاً؟

هل هو من النوع الذي يتوقع شكراً مميزاً مقابل دعوته على سهرة؟



قالت: «أخشى ألاّ يكون لدي بن طازج، ربما يمكن أن نجد مقهى لطيفاً في مكان ما».

وارتفع حاجبه.

ـ لا بأس بالقهوة الفورية، فأنا لست متطلباً، وأنا واثق أن المقاعد في بيتك أكثر راحة من أي مقاعد في أي مقهى.

راقبته بعينين ضيقتين وهو يتجه إلى جسر الميناء، إلى شمالي سيدني!

وسمعت نفسها تقول: «حسناً جداً، لا بأس، طالما أنك ترضى بالقهوة الفورية، وبحديث ودي».

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساحرة لا تقاوم: «فهمت قصدك، دكتورة».

فبادلته ابتسامته، وارتاحت عضلاتها المتشنجة، وتساءلت عما إذا كانت ساذجة حين بدأت تثق به فمن يملك ثراءه وعائلة كعائلته، لا بد أنه معتاد على الحصول على ما يريد، وفي أي وقت يريد، وهو على الأرجح معتاد على أن تظهر النساء مقاومة كلامية، كي لا يظهرن سهلات المنال. ولا بد أنه تصور أنها تلعب لعبة مماثلة. حسناً جداً، سيعرف الحقيقة قريباً! لكن، عليها أن تحظى أولاً بفرصة التحدث معه، وطرح بضع أسئلة عليه.

قالت تحذره: «لا تتوقع شيئاً فخماً، فهو ليس شبيهاً بالقصر الذي اعتدت عليه».

فاستدارت العينان السوداوان نحوها: «وما الذي يجعلك تظنين أنني أعيش في قصر؟».

ـ حسناً جداً، ألا تعيش في قصر؟

لقد سمعت كيف تعيش عائلة برانسون. منزلهم الفخم على الميناء... الشقق الفخمة حول العالم... أملاكهم الواسعة في الشمال... جزيرتهم الاستوائية الخاصة...

فارتفع حاجبه: «يبدو هذا جيداً لك؟ أليس كذلك؟».

كانت على وشك الرد عليه رداً لاذعاً، لكنها تذكرت أنها تريد لقاء

جوليوس برانسون.

لذا قالت بجفاء: «حسناً جداً، لا يبدو هذا صعب الفهم».

كوّر شفتيه، ورفع كتفيه، ثم تركهما تهبطان: «لست بحاجة لأكثر من مقعد واحد للجلوس عليه، ولا إلى أكثر من طاولة واحدة لتناول الطعام عليها، ولا إلى أكثر من فراش واحد للاستلقاء عليه.. حاجاتي أكثر بساطة مما تظنين».

فنظرت إليه شزراً... هل ذكر الفراش متعمداً؟

وقالت بخفة: «أنا مسرورة لسماع هذا، وسنجرب الأمر حين نصل إلى منزلي».

التمعت ابتسامته مجدداً: «تعنين المقعد... أم الفراش؟».

فاحمر وجهها: «المقعد بكل تأكيد».

وسرتها فرصة توضيح الأمور، لكنها أقلقتها أيضاً. فقد يقرر ألاّ يدخل أو أن يهرب، إلى الأبد! لا يمكنه القيام بذلك... فأنا بحاجة إليه!

ولاذت بصمت عميق مع نفسها، تخطط لما يجب أن تفعله لكي يغير رأيه... في حال احتاجت إلى خطة.

كتمت أنفاسها حين توقف خارج مبنى شقتها، وبقيت كذلك إلى أن سار بها حتى الباب الأمامي، ولحق بها إلى الداخل، ثم ما لبثت أن أطلقت أنفاسها، وأحست بقلبها يقفز ارتياحاً، وبشيء آخر... أهو الترقب، التوقع، أم الهياج المتهور.

غير أنها سارعت تؤكد لنفسها: هذا إحساس التحدي فقط لأنها تعرف أن الأمر بات الآن بيدها. فبيدها أن تثير اهتمامه بما يكفي، ليرغب في رؤيتها مرة أخرى.

ونظر حوله في الشقة: «رائعة جداً».

كانت الشقة جديدة، لكن مزيجاً من الأثاث القديم والجديد كان يملأها بغير ترتيب... وأحست تيس بالابتهاج لأنها فكرت بترتيب المكان، قبل أن يأتي ليأخذها، إذ خشيت أن يأتي باكراً فيرغب في الدخول.



ثم تنهدت... ربما الطريقة الفضلى لإبقاء اهتمامه حياً، هي مفاجأته... والقيام بأشياء لا يتوقعها، على عكس ما تفعله صديقاته الأخريات.

ولمحته يلقي نظرة عبر باب غرفة نومها على السرير، فقالت بسرعة، متمنية أن تستقر ضربات قلبها:

ـ أنت محظوظ، لقد تذكرت لتوي أنني أضع بعض البن المطحون في الثلاجة، لذا لن تضطر لارتشاف القهوة الفورية... سأعود بعد دقيقة.

وسارعت مقطوعة الأنفاس، إلى المطبخ، وهي تقول: «تصرف وكأنك في منزلك!».

ـ سأرافقك إلى المطبخ.

كان صوته خلفها مباشرة، مما أثار فيها القشعريرة، وحاولت ألاّ تتعثر وهي تضع الماء على النار ليغلي وأخرجت رزمة البن من الثلاجة، وهي تعي بشدة أن عينيه تراقبانها. ثم أفرغت قليلاً من البسكويت المغلّف بالشوكولا في طبق.

سألها: «منذ متى وأنت هنا؟».

عندما استدارت رأته جالساً على المقعد المغطى بالسيراميك. وكان يسند ذقنه على يديه. كان يراقبها بعينيه السوداوين المحجوبتين برموشه السوداء.

ـ منذ بضعة أشهر.

واستدارت عندما بدأ الماء يغلي: «قبل ذلك كنت أعيش مع أمي، ولكن ليس دائماً، فقد كنت مضطرة للانتقال إلى مكان آخر قريب من المستشفى الذي عملت فيه لسنوات. لكنني عدت لأسكن معها لفترة بعد أن بدأت عملي الخاص، لأدخر».

ـ وتركت البيت مرة أخرى حين التقيت أندرو؟

فاحمر وجهها لذكر أندرو، وهزت رأسها نفياً.

ـ كنت أراه قبل هذا. لا، تركت البيت لأن أمي ماتت.

وحافظت على رباطة جأشها وهي تضع القهوة.

- قررت أن أبيع المنزل وأشتري شقة قريبة من العيادة.

وقفزت مجفلة حين أحست بيده على كتفها، فهي لم تسمعه يقترب أو يتحرك!

- أنا آسف بشأن أمك يا تيس. هل دام مرضها طويلاً؟

صبت القهوة قائلة: «ليس بالضبط، بل كان مفاجئاً في نهايته».

ثم التقطت الكوبين، وطبق البسكويت: «لقد عانت لسنوات من التهاب المفاصل».

وسارت أمامه إلى غرفة الجلوس:

- لكن الأمور ساءت منذ سنة تقريباً، وكان يمكن أن تلزم الكرسي المتحرك لو أنها...

صمتت، فالذكرى لا تزال مؤلمة: «لكنها أصيبت فجأة بنوبة قلبية قوية. لم أكن في البيت حينها، ولم تتمكن الممرضة التي كانت تأتي في النهار من إسعافها».

وبدا تعاطفه حقيقياً: «هذا أمر قاسٍ».

قالت تيس متألمة: «هذا ما أرادته. إذ كانت تكره أن تقضي الحياة في كرسي متحرك، وكانت تعاني ألماً رهيباً في الأشهر الأخيرة».

وقف بيرس يراقبها وهي تضع كوبي القهوة على الطاولة المنخفضة، وقال: «الآن فهمت لماذا اخترت هذا الاختصاص... أردت إيقاف معاناة الآخرين، كما كانت تعاني أمك».

- شيء من هذا القبيل.

وأشارت إليه ليجلس على المقعد الوثير.

- اجلس هنا، هذا ليس أفضل مقعد في العالم، لكنني أراهن أنك لم تجلس في واحد أكثر منه راحة.

وغاص فيه: «حسناً، أنت على حق، قد لا أرغب في مغادرته أبداً».

وفكرت: هذا جيد، وأحست أنها بأمان، ثم اختارت لنفسها مقعداً آخر وجلست واضعة ساقاً فوق ساق مدركة أن عينيه عليهما.



وقال بصوت أكثر خشونة من العادة: «هذا أفضل من أن تمتهني جراحة القلب، تيس...».

- جراحة قلب؟

- بهذا الفستان المثير، وهذا الطول المميز، سيكون لديك سيل لا ينتهي من الرجال المساكين يصطفون أمام عيادتك لتجري لهم جراحة قلبية مستعجلة، ولن تنعمي بلحظة فراغ!

فضحكت، بصوت خافت أجش: «مرضاي لا يرونني عادة في مثل هذه الثياب».

فهي ترتدي عادة ثوباً يخفي ساقيها الطويلتين، ويُخفي أي فتنة تملكها. قد اعتادت على ذلك أيام الدراسة والتدرج، رغبة منها أن يُنظر إليها بجد، فهي لن تتحمل التعليقات والتحرشات من زملائها ومرضاها.

وسألها بنعومة: «ترتدين هكذا لأشخاص مثلي، أو مثل أندرو فقط؟».

يعني الرجال! وشعرت تيس بالارتباك. كيف يمكنها أن تلومه لظنه هذا؟ ألم تخرج عن طورها منذ عرفته للفت نظره؟ لتأسر اهتمامه وتبقيه هكذا؟ أولاً في المركب، ثم هذه الليلة.

وتمسكت باسم أندرو كتغيير للموضوع: «لقد قلت إنك رأيت أندرو منذ يومين. كيف حاله؟».

- تعنين هل ذكرك؟ أوه أجل، كان لديه الكثير ليقوله عنك.

والتقت عيناها بالعينين الممازحتين بجهد، مصممة ألاّ تشيح نظرها، أو تُظهر أي دليل على الذنب أو الارتباك.

هل نفذ أندرو تهديده وحذّر بيرس منها؟ هل تصرّف معه بعدوانية؟ وانتظرت ردّه.

حين لم يقل شيئاً، اعترفت متنهدة: «لم يكن سعيداً آخر مرة رأيته».

- لا، ولم يبدُ سعيداً حين رأيته أنا.

نظر إليها نظرة تساؤل: «أفهم من هذا أنك لم تريه منذ العيد

الوطني؟».

فحبست أنفاسها. . اللعنة، اللعنة! اللعنة، الآن وقد عرف هذا، قد يعتقد أنها انفصلت عن أندرو بسببه، فيصدق ما قاله أندرو عنها عن سعيها إلى من يملك مركزاً أهم بكثير من مركز محامي شركات!

أشاحت بنظرها عنه، لتمد يدها إلى قهوتها. كيف يمكن لها أن تقول لبيرس إن أندرو هو من يركز نظره على أشياء أكبر وأفضل وليس هي. ولكنها لن تقول شيئاً قبل أن تحظى بأيّ فرصة للقاء جوليوس برانسون. وإذا أراد بيرس أن يصدق بأن لديه شيئاً ما يقدمه لها، وتريده، فليصدق ما يشاء. في الوقت الحاضر، كل ما تفكر فيه هو لقاء والدها الذي لم تعرفه يوماً، وهذا كل ما ترغب فيه.

قال بيرس: «إذن لقد انفصلت عنه؟».

بدت العينان السوداوان غير مقروءتين، فلم تستطع أن تعرف ما إذا كان سعيداً، أم لا. وأحست برغبة لركل نفسها على الحماقة التي ارتكبتها إذ تركت أندرو في تلك الفترة، فلو أبقته متعلقاً بها، كما تفعل نساء أخريات، لخفف هذا من حماس بيرس لملاحقتها، لكنها متأكدة أن زير النساء الغني المدلل لا يتمتع بالكثير من الأخلاقيات في مسألة سرقة النساء من رجالهن!

قالت متوسلة: «هل تمانع إذا لم نتكلم عن أندرو؟».

ودعته يعتقد ما يريد. . . دعته يظن أنها مثله من دون قلب. . . طالما يريد رؤيتها مرة أخرى!

* * *



## ٤ ـ النار النائمة

سأل بيرس، مستسلماً لرغبتها في عدم الكلام عن أندرو: «ووالدك؟».

فأجفلت: «والدي؟».

ـ هل ما زال والدك حياً؟

فحاولت تيس الإجابة بهدوء: «لم أعرف أبي يوماً».

ـ أتعنين أنهما انفصلا قبل ولادتك؟ أم أنهما لم يتزوجا قط؟

أخذت تيس نفساً عميقاً. . . كانت تعرف أنها يجب أن تكون حذرة جداً في ردها: «كانت أمي متزوجة، وقبل ولادتي تركها زوجها الذي كبرت وأنا مؤمنة أنه أبي، بالرغم من إنكار أمي لهذا. فهو لم يكن يريد أولاداً، حسب قول أمي، قال لها إنها إذا حملت فسيتركها، ولأنها كانت تحبه كثيراً ولا تريد أن تخسره، وافقت، في البداية. لكن حين اكتشفت أنها حامل، وطلب زوجها منها الإجهاض، رفضت. وهكذا، تركها، وتطلقا، ولم تره أمي منذ ذلك الحين. . . لم ترد أن تراه وعادت تستعمل اسم عائلتها رافضة حتى الكلام عنه».

تلاعب بيرس بكوب القهوة بين يديه: «الخنزير. . . قلت إنك كبرت وأنت تظنين أنه والدك. أما عدت تعتقدين ذلك؟».

فهزت تيس رأسها، وأخذت رشفة طويلة من القهوة قبل أن ترد: «بعد موت أمي بدأت أبحث عنه. ظننت أن أمي أنكرت أنه أبي لأنه جرحها، كانت تقسم دائماً أنه ليس أبي، لكنها لم تخبرني من هو والدي الحقيقي. قالت إنها لا تستطيع، وماتت دون أن تقول لي شيئاً».

وتعمدت تيس ألاّ تذكر المال الذي كان يصل إلى حساب أمها المصرفي مرتين في السنة منذ مولدها. ولا يزال يصل ويدفع الآن لحسابها هي، إذ لا تريد اللعب بالنار! فيبرس ضليع في القانون ولا بد أنه يعرف الكثير من المحامين، وقد يعرف محامي أمها، ويحاول استخراج الحقيقة منه، معتقداً أنه يسديها خدمة. وارتجفت لفكرة أنه قد يجد الحقيقة ويواجه جوليوس بها، أمام زوجته ديليا ربما، أو ينقلب عليها هي للطريقة التي خدعته فيها. كانت تريد أن تعرف الحقيقة بهدوء، وبسرية، وأن تبقيها بينها وبين جوليوس، لا أن تخرجها إلى العلن. فهي تعرف أن هذا سيقود إلى جرح من هم الأقرب إلى جوليوس، كزوجته وعائلته. كل ما تريده هو أن تعرف الحقيقة، حقيقة أصلها، لترتاح فقط.

وسألها بيرس: «هل تمكنت من ملاحقة أثره؟ أعني زوج أمك السابق؟».

فأجابت تيس وهي تتفحص الرسم على كوب القهوة: «مؤخراً، ولقد أكد لي ما قالته أمي بأنني لست ابنته».

ـ وصدقته؟

هزت رأسها ورفعته مجدداً، دهشة من التعاطف الذي سمعته في صوته، والتفهم الذي لمحته في العينين السوداوين اللتين لا تحملان عادة سوى المكر. لم تظنه قادراً على التأثر والشعور بالشفقة وتفهّم مشاعر الآخرين. فالناس لا يتكلمون إلاّ عن ذلك العابث المحب للمرح، المتلاعب بالحياة، المتلاعب بالقانون، والمنكب فقط على ملذاته ومتعته... ولكن يبدو أنه يتمتع ببعض المزايا أيضاً.

إنه محام بارع وهذا واضح من الطريقة التي يسأل فيها. من المؤسف أنه سيضطر للتخلي عن مهنته يوماً ليدير امبراطورية أبيه!

ضغط بيرس بسؤال: «وما الذي جعلك تصدقينه؟».

فهزت كتفيها: «عرفت لحظة وقعت عيناي عليه... أنا لا أشبهه... ولا أشبه أمي. كانت شقراء رمادية العينين، وهو أسود العينين أسود



الشعر... قال إنه لا يرغب في ولد، وإنه سيكون ملعوناً لو ربى ولد غيره، لهذا ترك أمي، كما قال لي. وهو الآن متزوج، وأكّد لي أنه سعيد مع زوجته، سعيد ومن دون أولاد».

ـ وهل تمكن أن يقول لك من هو أبوك؟

كان صوته ناعماً كالمخمل، جذاباً ومغرياً.

كتمت تيس أنفاسها، وهزت رأسها: «قال إن أمي رفضت أن تقول له، كما رفضت دائماً أن تقول لي».

أسبلت رموشها تخفي بها عينيها. لم يكن لديها النية لتقول لبيرس برانسون ما قاله لها زوج أمها السابق، بأن الرجل الذي حملت منه، رجل متزوج سعيد، أصر على أن تبقي هويته سراً. كما قال لها ميتشل لاورنس بابتسامة ملتوية: «ليس من الصعب أن تحزري من هو».

وأكمل: «كانت أمك تعمل في ذلك الوقت كسكرتيرة خاصة لرجل أعمال ثري، رجل متزوج ارتفع إلى قمة عالم الأعمال في أوستراليا.. كانا يعملان بشكل مقرب جداً، وكانا يسافران معاً».

والتوت شفته للذكرى.

ـ وعادت حاملاً من إحدى رحلات العمل، ولم يكن لدي أي دليل. لا تستهزي بي، فأنا أعمل في إحدى صحفه، ولا أريد أن أخسر عملي.

وطالبت تيس أن تعرف اسم الرجل، وحين قال لها إنه جوليوس برانسون، فقدت القدرة على الكلام... أيكون والدها أحد أغنى رجال أوستراليا وأكثرهم نفوذاً؟ وبدا لها هذا مستحيلاً، وبعيداً جداً عن منالها... لم تعرف ماذا تفعل، أو كيف تتقرب منه لتعرف الحقيقة؟ إلى أن تلقى أندرو الدعوة لحضور العيد الوطني لأوستراليا.

وجاء صوت بيرس ليقطع عليها حبل أفكارها: «ألم يُكتب اسم والدك على وثيقة الولادة؟».

تفرست في ما تبقى من قهوة في فنجانها: «لا».

هل قالت له الكثير؟ لا تريده أن يستخدم اسمه الشهير، أو اتصالاته

القانونية للتنقيب عن المعلومات لأجلها، فهذا قد يؤدي إلى كارثة، للجميع!

- هل هذا الاحمرار في شعرك طبيعي يا تيس؟

فارتفع رأسها: «عفوك؟».

وأحست فجأة بالغثيان... ماذا لو كان جوليوس برانسون أحمر الشعر كذلك، فيجد پيرس علامة مشتركة بينها وبينه؟ كانت قد رأت صورة واحدة لزعيم الصحافة الشهير، لكنها لم ترها ملونة. تذكر أن لون شعره كان خفيفاً، لكن من الصعب تحديده، ربما كان زنجبيلاً شاحباً؟

ولكنها عادت ووبخت نفسها على حماقتها، فما من سبب يدعو پيرس لربط والده بها. لا شيء أبداً! إنها متوترة من دون سبب، ويجب أن تكون ممتنة لأنها لم تذكر له أن أمها عملت يوماً لجوليوس برانسون!

وأجبرت نفسها على الابتسام: «أجل، أسوأ الحظوظ!».

ومدت ذراعها الشاحبة البشرة: «كم أحب أن تكون لي بشرة تلوحها الشمس بسهولة، وأن أتمكن من الاستلقاء تحت الشمس طوال اليوم».

فقال بسرعة: «معظم الفتيات يحلمن بالحصول على بشرة صافية شفافة مثل بشرتك، وهذا الشعر...».

وجالت عيناه على شعرها بطريقة حارة ثاقبة.

- إنه أروع لون رأيته في حياتي، فإذا ورثته عن والدك، فقد يجدّ هذا مجال البحث كثيراً. لا يمكن أن يكون هناك الكثيرون ممن لهم شعر مثل شعرك.

وأحست بقشعريرة حارة تسري في عروقها.

فقالت مراوغة: «قد تصيبك الدهشة».

ووضعت من يدها كوب القهوة: «لقد تكلمت كثيراً عن نفسي، أخبرني شيئاً عن نفسك يا پيرس، عن تربيتك، عائلتك، أبويك».

لكنها كانت تريد أن تقول، أخبرني أي شيء عن جوليوس برانسون.

بدا أن عينيه السوداوين تبحثان في وجهها وهي تنظر إليه... ليتها



تعرف فقط عمّا يبحث، أو فيما يفكر! هو لا يشك في شيء بالتأكيد؟ لا يمكن!

وقال بعد لحظات: «بالكاد أتذكر والديّ».

فأدركت بعد لحظة أنه يتكلم عن أبويه الحقيقيين، وليس عن «برانسون».

- كانا صديقين مقربين من أسرة برانسون، وبعد مقتلهما في حادثة خارج البلاد، أصبحنا أنا وفوبي قانونياً ابنين بالتبني لعائلة برانسون، وهما ربيانا كولدين لهما، فجوليوس ودي لم يتمكنا من الإنجاب قط.

أرادت تيس أن تعيد الحديث إلى جوليوس برانسون: «لا بد أنك كنت ممتناً جداً لهما. يقول الناس إنكم عائلة متقاربة جداً. هل هذا صحيح؟».

راقبها پيرس من تحت حاجب مرتفع: «أعتقد أننا لا نختلف كثيراً عن معظم العائلات».

فضحكت غير مصدقة: «لا تملك معظم العائلات سلسلة من البيوت، ولا يخاً فخماً، أو جزيرة خاصة، ومزرعة مواشي بحجم فرنسا...».

لو يشعر بالحماسة التي تبديها، لربما يدعوها پيرس إلى عالم أسرته الخاص، فتتمكن عندئذ من مقابلة جوليوس. وسألها پيرس: «هل هذه هي الأشياء التي تعجبك يا تيس؟».

وفي الوقت المناسب، كتمت «لا، بحق السماء!» ثم مررت لسانها على شفتيها وقالت: «لست أدري، فأنا لم أعرف مثل هذه الأشياء».

كانت ترد بسرعة، لكنها كانت تأمل في سرها، لو يقرر پيرس أن يريها على الأقل بعضاً من هذه الممتلكات، وأكثر ما تفضل أن يصطحبها إليه هو المكان الذي قصده جوليوس برانسون لاستعادة عافيته!

إنه يراقبها... عيناه شاخصتان على ثغرها وكأنه مسحور. فشعرت بارتباك ونظرت إلى ساعتها: «أرجو عفوك، لكن الوقت متأخر».

- أنت على حق.

ورفع نفسه بشيء من الصعوبة عن المقعد العميق، ووقفت بدورها فوجدت نفسها تتراجع متوترة بعد أن خطا خطوة نحوها لا نحو الباب... وتوقفت مسمرة حين لامست ساقها المقعد خلفها.

وبذعر مفاجيء، حاولت أن تلتفت مبتعدة، وهي تتمتم: «كانت ليلة رائعة بيرس، رائعة فعلاً، سأرافقك إلى الباب».

- ليس بهذه السرعة!

وأمسك كتفها لتواجهه. فوقفت ترفع نظرها إليه بعجز.. أوه، اللعنة! وكرهت ضعفها الذي أذاب أطرافها فجأة.. إنها المرة الأولى التي تشعر فيها الدكتورة كينللي، الباردة القلب، بالعجز بين ذراعي رجل!

واستجمعت كل قوة إرادتها لتستعيد البرودة التي تبخرت.

- لقد اتفقنا على شرب القهوة فقط، وتبادل الحديث!

وبدا صوتها مرتجفاً أكثر منه بارداً.

فقال متوسلاً: «عناق واحد يا تيس، مقابل «الليلة الرائعة»؟».

كان صوته أجش وعيناه كنار سوداء، تغويانها، فتزيدان ضعفها ضعفاً.

فهزت رأسها برفض سريع، مع أن جسمها بأكمله كان يرتجف بترقب غادر. فقد أدركت أنها هي أيضاً لا تريد شيئاً سوى الإحساس بقربه منها، لكنها خشيت أن يحصل منها على مراده، وعندما يحقق انتصاره، فسينتهي كل شيء، وستنسف أفضل فرصة حظيت بها، وربما الفرصة الوحيدة للقاء جوليوس برانسون.

شهقت: «أنا لا أتقبل العناق منذ اللقاء الأول!».

وارتجف جسمها كله لقربه منها.

فارتفع حاجبه: «ظننت أن القاعدة هي ألاّ تذهبي إلى الفراش من اللقاء الأول؟».

- قد يكون الأمر سيّان، لبعض الناس!

- ولكن ليس لي يا تيس، أعدك.



مررت لسانها على شفتيها: «حسناً جداً، لكن ليس هنا... على الشرفة الأمامية... مجرد عناق لليلة سعيدة، كما قلت!».

ولمعت عيناه السوداوان: «أنت امرأة صعبة يا تيس، لكن إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة...».

فتحررت منه وانطلقت إلى الباب: «إنها الوحيدة، لك أن تقبلها أو ترفضها!».

لكن، بعد لحظات كانت بين ذراعيه، وكان الموقف على الشرفة الأمامية الصغيرة أكثر دفئاً وإرباكاً، وكان هواء الليل المعطر يداعبهما، وكذلك الظلمة المخملية الموشاة بالنجوم الصغيرة، والهلال الفضي... إلاّ أن الذراعين اللتين تطوقانها كانتا أكثر إغواءً بكثير.

وراح ضميرها يؤنبها مجدداً... هذا خطأ.. وارتجفت شفتاها وهي ترفع وجهها إليه.. من الخطأ أن تشجعه هكذا. لكن كيف ستجد الحقيقة عن والدها إذا لم تتقرب بواسطة بيرس من جوليوس برانسون؟ إنه لا يريد سوى العناق.. وأحست بأنفاسها تتهدج في حلقها.

لكنها لم تكن مستعدة للإحساس الذي خالجها بقربه، وأخذ الدوار الذي انتابها يزداد عمقاً وحرارة. كانت يده تتحرك على ظهرها، وأصابعه تتسلل إلى مؤخرة عنقها لتندس في خصلاتها المسترسلة.

أحست بالرغم عنها أنها سعيدة تحت ضغط ذراعيه المتزايد، وارتفعت ذراعاها، بطريقة ما، لتلتفا حول عنقه. وأخذت أصابعها تتحسس بشرته، وتعبث بشعره الكثيف.

فقال هامساً قرب أذنها:

- عرفت أن هذا سيكون رائعاً يا تيس، فأحدنا خلق للآخر.

وذكرها صوته وكلماته بشيء من عدم الارتياح... تذكرت أنه بيرس برانسون، زير النساء والعاشق الخبير، لا بد أنها كلمات استخدمها ألف مرة من قبل، يجب أن تضحك على هذه الكلمات، أن تسخر منها، لكن لماذا لا تستطيع؟ لماذا لا تريد؟ لأنها بكل غباء، تشعر أنها في مكانها المناسب بين

ذراعيه.

واستطاعت أن تشعر بأطراف أعصابها تستجيب للمساته، عرفت أنها يجب أن توقفه، أن تنفصل عنه في الحال، لكن تكاسلاً غريباً اجتاح أطرافها.

ولكن حين أحسته يتجاوز الحد تراجعت وانزلقت ذراعاها عن كتفيه، تتهرب على مضض من الشرك الحريري الذي كان يحوكه حولها.

وغمرها إحساس بالخجل... هذا خطأ! وتراجعت إلى الوراء بعيداً عنه... هي ليست مستعدة لذلك، ولو أنه يرى هذا الأمر طبيعياً وعصرياً، لكن من الواضح أنها ليست عصرية كما يعتقد، فكل تلك السنوات من الدراسة، من العمل لساعات طويلة، لم تترك لها وقتاً للعبث.

وقال يتحداها بنعومة وهي تلتفت بعيداً: «لا تقولي لي إن هذا لم يعجبك يا تيس.. لقد أردت المزيد؟».

فهزت رأسها:

ـ قلت مجرد عناق بسيط!.

ولم تجرؤ على الرد على سؤاله... حتى لنفسها.. يجب ألاّ يتكرر ما حصل! وتجاهلت العذاب الخفيف الذي لا يزال يهز جسمها... هي مستعدة لاستخدام ذكائها وخداعها، وحتى جمالها، للحصول على لقاء مع جوليوس برانسون، لكنها لا تنوي أبداً استخدام جسدها، مهما كان هذا الجسد يغريها أن تفعل! لن تكون أفضل من... من غاوية!

وقال يحثها: «تعالي للإبحار معي غداً».

كان يقف بعيداً عنها من دون أن يحاول إعادتها إلى ذراعيه.

فكتمت أنفاسها... إذن، يريد رؤيتها مرة أخرى!

سألت، وهي تحاول أن تعيد تفكيره إلى جوليوس: «أنا... ألن ترغب في الذهاب لرؤية والدك؟».

عليها أن تلتقي بجوليوس برانسون بسرعة، قبل أن تفلت الأمور من يدها!



ورفرف قلبها للفكرة.. يجب ألا تفلت الأمور من يدها! فإن تبين أن جوليوس برانسون هو والدها، واعترف بهذا، فسيكون بيرس أخاها بالتبني في نظر القانون.

نظر إليها بيرس بارتياب، بعينيه السوداوين اللامعتين.

ـ اهتمامك بأبي مؤثر. لم يكن الأمر سوى عملية جراحية للمرارة.

تبنت تيس اللهجة الصارمة كطبيبة: «كلّ عملية جراحية خطيرة. ألست مقرباً من والدك؟».

ـ بالعكس، كنت أخطط لزيارته، في نهاية الأسبوع المقبل. إنه ذاهب إلى «أكاما» للنقاهة، جزيرتنا في «وايتسنداي». عمتي «كاميل» مريضة وهي تعيش هناك دائماً.

نهاية الأسبوع المقبل... آه، سيمر أسبوع كامل! وأخذت تيس نفساً طويلاً... هل يمكنها أن تأسر اهتمام بيرس حتى ذلك الوقت؟، أن تجذبه بما يكفي ليرغب في اصطحابها معه إلى «وايتسنداي؟».

قالت متأملة، تتصنع الفضول:

ـ ألن تذهب غداً؟ ألا يشعر والدك برغبة في رؤية العائلة حوله؟

فارتفع حاجب بيرس قليلاً وأحست برجفة غير مريحة... هل يتساءل لماذا تظهر كل هذا الاهتمام بجوليوس برانسون؟

فهز كتفه وقال: «لقد زرته اليوم في المستشفى، وأنا واثق من أنه سيعيش دون أن يراني لأسبوع آخر. في الواقع، سيزوره توم وفوبي في نهاية هذا الأسبوع. نحن لا نريد أن نغرق جوليوس باللطف والنوايا الطيبة! إضافة إلى هذا، أنا وسط قضية قانونية مهمة في الوقت الحاضر، ويجب أن أبقى في المدينة.

قضية قانونية مهمة... إلى أي مدى مهنته مهمة له؟ وتذكرت بارتياب ما قاله أندرو عنه.. إنه «يتلاعب فقط بهذه المهنة». فهل يستخدمها كعذر للبقاء في المدينة، كي يستمر في ملاحقتها؟

وانخفض صوت بيرس محاولاً إقناعها: «حسناً جداً؟ هل ستأتين

للإبحار معي غداً؟».

ـ أنا آسفة، لا أستطيع، فلدي عمل.

ـ إذن، ماذا عن العشاء ليلة الغد؟

وارتعشت لتصورها ليلة أخرى تقاوم فيها تحرشاته... فقضاء نهار كامل في الإبحار معه يبدو أكثر أماناً، حيث تستطيع التوسل للخلاص في المساء مدعية الإرهاق أو ضربة شمس!

وهزت رأسها:

ـ أنا... لقد وعدت أحدهم بالذهاب إلى المسرح.

سأل بحدة: «أندرو؟».

ـ هي صديقة.

وكرهت نفسها للكذب... هل هي حمقاء تلعب دور صعبة المنال؟ هل تخاطر في أن يفقد اهتمامه بها تماماً؟

ـ تملصي منها!

نظرت إليه شاهقة: «لا أستطيع هذا!».

هل هذا ما يتوقعه من نسائه؟ أن يلغين المواعيد لأجله؟ وقررت أن تتصل بصديقتها باميلا في الصباح الباكر، وتتفق معها على موعد لحضور المسرح في المساء.

لمعت العينان السوداوان في العتمة. هل انزعج؟ أم أنه دهش لأنها لم تستسلم وتعده بإلغاء الموعد؟

وقال ببطء: «سأقول لك شيئاً، سأذهب للإبحار يوم الأحد بدلاً من الغد. تعالي معي تيس».

أخذت أنفاساً مرتجفة... بيرس برانسون يغير خططه؟ ومن أجل امرأة؟ هل هذه المرة الأولى؟ وضاقت عيناها... أم لعله يذهب بعيداً ليصطاد المرأة التي يسعى إليها؟

لكن، بعد أن يصطادها... بعد أن ينفذ ما يريد، كم سيدوم اهتمامه بها؟ إلى المدى الذي يدوم فيه الصيد؟



سأعطيه صيداً ـ أقسمت تيس ـ بيرس برانسون يحتاج إلى امرأة تُشقيه بسبب ماله، شخصية تكون تحدياً حقيقياً له، وأنا الوحيدة المناسبة لذلك، لأنني أعرف أنني لن، ولا أستطيع، يجب ألا أتورط معه.

سخر منها صوت من أعماقها: أوه لا؟ ألا تذكرين عناقه؟

فشدت على شفتيها، وتذكرت، وفكرت بشجاعة: هذا بالضبط ما سيحميني.. الإنذار المسبق سلاح مسبق! لن يكون هناك المزيد من العناق!

لكن، بعد أن تركته يعانقها مرة، كيف يمكن لها أن ترفض في المرة القادمة، دون أن تجعله يهرب منها سخطاً، ويسأم من الصيد! سيبقى هناك دائماً نساء ينتظرن رجلاً مثل بيرس برانسون، وهو يعرف هذا تماماً!

وقالت بعد لحظات:

ـ أنا لم أبحر من قبل، قد لا أنفع في ذلك.

فلمعت أسنانه البيضاء في وهج الليل: «أنا واثق أنك ستتعلمين بسرعة.. سآتي لآخذك في الثامنة والنصف، صباح يوم الأحد، هل هذا وقت باكر بالنسبة إليك؟».

ـ سأكون جاهزة في الثامنة والنصف تماماً.

ووبخته عيناها وكأنهما تقولان:

ـ وليس بعد عشر دقائق.

ـ بالضبط، حاضر سيدتي! أحضري معك مستحضراً طبياً للوقاية من الشمس، وقبعة، والأشياء اللازمة للسباحة.

وقفت تراقبه يذهب، وجسمه الطويل يتهادى مبتعداً برشاقة، وسرعان ما اختفت سترة العشاء السوداء التي يرتديها، في الظلام، واستدار ملوّحاً بيده، تحت وهج مصباح الشارع، حيث ترك سيارته وكأنه يعرف أنها ما زالت تقف هناك تراقبه.

أحست برجفة ممتزجة بالخوف... وبأحاسيس كادت تنساها منذ أيام الدراسة، فأيقنت أن الأمور بيدها الآن.

لقد علق بيرس برانسون، ومن الآن فصاعداً، سيكون الأمر أشبه بتمثيلية تحايل دقيقة. . . أشبه بامتحان حقيقي لبراعتها ومكرها من ناحية، والمحافظة على اهتمامه بها من ناحية أخرى.

وأحست أنها تتطلع بشوق إلى الأحداث التي ستلي.

وفضلت ألاّ تفكر في الأمر، ولا حتى الأخذ بعين الاعتبار أن من المحتمل أن تكون هي التي علقت!

***



## ٥ ـ هي وهو والبحر

سأل بيرس وهو يقلّها من منزلها يوم الأحد.

ـ ألن تشعري بالحر في البنطلون؟

هذه المرة وصل في الوقت المحدد. ولمعت عيناه بسخرية حين وجدها بانتظاره.

قالت تيس بخفة: «إذا اشتدت وطأة الحر، أستطيع تغيير ثيابي».

وأشارت إلى حقيبة على كتفها، حيث وضعت قبعتها وسروالاً قصيراً ومستحضراً مضاداً لحروق الشمس، وثوب سباحة ومنشفة. في الواقع، إن نظرات بيرس الثاقبة إلى ساقيها المديدتين، دفعتها لارتداء سروال طويل، ولو أن عينيها كانتا تجدان صعوبة ألاّ ترمقا ساقيه الطويلتين، وعضلاتهما.

حين وصلا إلى الميناء، كان المكان يضج بالحركة. ونظرت تيس إلى البحر الذي يعج بالمراكب البيضاء اللامعة، وتساءلت أيُّها لبيرس. . . إنه أجملها دون شك!

قال بيرس ملوحاً بيده: «حسن جداً هذا هو».

وحاولت تيس أن تخفي دهشتها لرؤية مركبه، فقد كانت تتوقع مركباً ضخماً يخطف البصر. . يناسب ما رأته من يخت جوليوس برانسون الفخم، لكن يخت بيرس هو على الرغم من أناقته ونظافته، من الحجم المعتدل نسبياً، وليس مذهلاً بأي طريقة.

ولم يحاول إخفاء الفخر في صوته: «إنه جميل، أليس كذلك؟».

ونظر نظرة ملؤها الحنان إلى يخته الأبيض مما جعل قشعريرة تسري في

جسم تيس وتساءلت عن إحساسها لو مرت عيناه عليها بالطريقة ذاتها.

ثم قال: «إنه سهل القيادة، وهذا ما أحبه فيه.. يمكنني أن أبحر فيه بمفردي، وهو عظيم في السباق».

وكان صوته ناعماً وبدا بريق ماكر في عينيه السوداوين، وهو يمسك بيدها ليساعدها على الصعود.

فكرت تيس أنه بكلامه هذا لا يصف مركبه، بل يصف نوع المرأة التي تعجبه! سهلة القيادة... وتعهّدت قائلة: حسناً جداً بيرس برانسون، لن تجد هذه السيدة سهلة القيادة، وهذا ما أستطيع أن أقوله لك!

وسألته برقة محاولة أن تخلص يدها من يده: «وهل تقوم بالسباق دائماً؟».

- غالباً في نهاية الأسبوع... اسمعي، لماذا لا تضعين أشياءك في الطابق السفلي، وتحضرين قبعتك وتصعدين إلى مقدمة اليخت بينما أخرجه من الميناء؟

- أجلس في المقدمة؟

ورفعت تيس رأسها فتطايرت خصلاتها في أشعة الشمس كنار حمراء.

- جد لي عملاً آخر! أرني أين هي الحبال، وسأساعدك.

وتراقصت العينان السوداوان أمام عينيها. فتساءلت تيس عمّا إذا كان بيرس يتأكد من قولها أو أنّه يشعر بمجرد التسلية لفكرة مساعدتها له.

- إذن، أنت لم تبحري من قبل؟

لوحت يدها بخفة: «لا هذه هي المرة الأولى، فقد كان لدي ما يشغلني في السنوات الماضية».

- أولا يبحر أندرو؟

فنظرت إليه بعينين ضيقتين... هل يحاول التعالي عليها؟ ففي عالمه، يتعلم الجميع الإبحار منذ الولادة من دون شك! ولماذا يصر على ذكر اسم أندرو؟

وأجابت بحدة: «لا يملك الجميع وقت الفراغ أو الوسائل التي يبدو



أنّك تملك منها الكثير!».

وأحست بقليل من الظلم للطريقة التي صرفت بها أندرو من حياتها فجأة، وبالغضب من بيرس لافتراضه أن الجميع يمضي ساعات فراغه في الإبحار بمركبه.

لكنها أحست برغبة في أن تعض لسانها لحظة خرجت منها الكلمات، ووبخت نفسها: حمقاء! أنت تخاطرين ببيرس في هذه المرحلة الدقيقة من... الصداقة. لكن، الاعتذار أو الندم سيضعف موقفها في نظره، فلا بد أن لديه من يزحف إليه دائماً، وربما يحتقرهم لأجل هذا... لا، لن تزحف. بل ستجعل ما قالته يبدو مزاحاً!

لذا تعمدت أن تظهر الضحك يتلألأ في عينيها، فإذا كان لديه روح المرح، فسيستجيب، وإلاّ، فمن الأفضل أن تلوّح له وداعاً، في التو والحال!

وكتمت أنفاسها لهنيهة، إلى أن رأت ردة فعل إيجابية في أعماق عينيه السوداوين وابتسامة ترفع طرفي فمه، وأحست بالارتياح وبدهشة خفيفة، لمعرفتها أنه يشاركها روح مرح مماثلة. ثم أدارت له ظهرها وهي تبتسم، واتجهت إلى الأسفل.

وحين عادت، كانت قد ضمّت خصلات شعرها تحت قبعة عملية، فيما كان وجهها وذراعاها مكسوين بالمرهم المضاد للشمس، ثم أصرت على مساعدة بيرس على شد الحبال ورفع الشراع. ولربما هزأ من محاولاتها المتعثرة، لكنه بدا ممتناً لها. وأطلق ملاحظة عن أن النساء يفضلن عادة الجلوس واستعراض أنفسهن على المقدمة، ويتركنه يقوم بكل العمل الصعب.

وبدأت المدينة تتلاشى تدريجياً خلفهم، وكانت المراكب الأخرى تمر بهما، بعضها قريب جداً، فكان على بيرس أن يتوخى الحذر. ورفعت تيس رأسها إلى الوراء وتركت الهواء يداعب وجهها، لتتمتع بالإحساس الجديد، وبرؤية بيرس، قوياً وقادراً وراء الدفة. فكان شعره الأسود مشعثاً، وخطوط وجهه الجانبية، تعيد إلى ذهنها صور القراصنة والمغامرين.

وقرابة الظهر، أنزل بيرس الشراع، وتوقف عند رصيف قصير تحت منزل متعدد الطبقات إلى جانب الميناء، فيه ملعب تنس وبركة سباحة محفورة في منحدر صخري تحت المنزل.

ثم قال لها وهو ينظر إليها: «هذا منزل عائلتي القديم.. والداي يسكنان هنا حين يأتيان إلى سيدني، وأنا أعيش في الشقة العليا للمبنى السكني المزدوج قربهما. وتعيش فوبي في الطابق الأسفل، وهي تنوي البقاء هنا مع توم، بعد أن يتزوجا».

فتمتمت: «يا له من موقع رائع!».

ورفعت نظرها إليه، فإذا عيناه ما تزالان ترمقانها تحت أشعة الشمس البراقة التي أخفت تعبيرهما، لكنها، مع ذلك...

أحست بيديها تعرقان. هل يفكر بدعوتها إلى عرينه الخاص؟ ونظرت إلى منزل عائلته القديم، مبدية اهتماماً.

إذن، جوليوس برانسون يعيش في هذا المنزل حين يكون في سيدني! وأخذت نفساً طويلاً ثم بدأت تلعن الفرصة التي ضاعت. فلو لم يسافر جوليوس برانسون إلى جزيرته الخاصة سعياً للنقاهة، لكان هنا اليوم، ولأخذها بيرس لتقابله... اللعنة، اللعنة، اللعنة... ووبخت نفسها فوراً لأنها أنانية ومن دون إحساس، فالرجل المسكين يستعيد عافيته من عملية جراحية! ويجب أن تفكر به، لا بد أنه يشعر بالألم والحزن.

كان بيرس لا يزال يراقبها: «تبدين مستغرقة بالتفكير يا تيس. هل ترغبين في النزول إلى البر، لإلقاء نظرة على منزلنا القديم؟ المنظر من هناك فائق الروعة، كما يمكن أن تتصوري».

صاحت: «لا!».

وشعرت بذنبها، لأنها عرفت أنها ما كانت لتفلت هذه الفرصة لو أن جوليوس هنا.

ـ أعني...

ـ أعرف ما تعنين يا تيس. استرخي.. أؤكد لك أنه لم يكن لدي هدف



خفي في تفكيري.. ولن أفعل شيئاً من دون موافقتك! كل ما فكرت فيه هو أنك ستحبين رؤية المنزل، والمناظر من هناك، ولن نكون وحدنا، فهوني معنا.

ـ هوني؟

فأجاب بيرس: «السيدة هوني تحديداً. إنها تعتني بالمكان لجوليوس ودي، كما تنظف منزلي ومنزل فوبي مرّة في الأسبوع».

تمتمت: «لا بد أن هذا ترتيب رائع».

وأخذت عيناها تنتقلان من مبنى العائلة إلى المبنى المجاور... لكلا المكانين نوافذ فخمة، وشرفات عريضة في كل طابق تطل على الميناء.

ـ ويساعدها زوجها جوي وتأتي ابنتهما المتزوجة للمساعدة وقت الضرورة، وجوي يعتني بالحديقة، ويقوم بأي عمل شاق في المنزل...

ثم صمت قليلاً ونظر إليها: «هل تحبين أن تدخلي لإلقاء نظرة أم لا؟».

ترددت، فقد ترى في الداخل صوراً ملونة لجوليوس، وتجد لمحة تشابه، ولمحة لشعر أحمر، فيرفع هذا من معنوياتها ويحفزها.

لكن، من ناحية أخرى...

فأجابت: «ربما في وقت آخر...».

آثرت أن تبقى هنا في الميناء، لا سيّما أن بيرس يرمقها بنظرات الشغف والشوق! فماذا لو حاول إغراءها بعد الدخول إلى المنزل لتدخل شقته المجاورة.. لا، لا يمكنها أن تخاطر! لم تكن فكرة مقاومته هي التي تمنعها، بل لأنها قد لا ترغب في المقاومة، وهذا أمر يجب ألاّ يحدث. فتورطها العاطفي مع بيرس برانسون، سيؤدي إلى عواقب وخيمة لا سيّما أن علاقتها مع جوليوس برانسون لم تحلّ بعد.

ـ حسن جداً، سنتناول الغداء هنا.

وأشار إلى القمرة قائلاً: «سنأكل في الأسفل، بعيداً عن حرارة الشمس».

فأحست بالعرق يتصبب من شفتها العليا وهي تنزل أمامه... القمرة

في الأسفل صغيرة جداً وحميمة جداً ومريحة!

ثم أخرج بيرس زجاجة عصير من براد صغير، وطعاماً من علبة مبردة جاء بها معه.

وقال معلناً: «هذا غداء الفلاح الخاص الذي تحضره هوني...» وكشف عن قطع من الجبن واللحوم الباردة المختلفة، وخبز مستدير هش.

اعترفت تيس: «عظيم، أكاد أموت جوعاً، ولا بد أن السبب هو هذا الهواء النقي!».

واندست وراء الطاولة الصغيرة. وبعد أن وجد بيرس بعض الصحون، جلس في المقعد المقابل. خلال الغداء، سألته عن حياته مع أسرة برانسون، وعرفت أن جوليوس أرسله قبل بدء دراسته الجامعية بسنة إلى الشمال ليرعى المواشي، وقال معلقاً: «يؤمن جوليوس أن العمل في الأرض يقوي الرجل».

سألت: «وهل أفادك هذا؟».

كان بيرس يبدو قوياً... صحيح أنه عاش حياة رفاهية، لكن هذا لم يترك تأثيراً سلبياً فيه... لا على عقله ولا على جسده. كان قوياً، يتسم بذكاء حاد وبشيء ينقص أندرو ألا وهو روح المرح.

هز كتفيه، مبتسماً: «على كل شخص أن يختبر هذا جسدياً ومعنوياً، فهذا يوسع دائرة ثقافته، ويقوي دماغه، وجسده، وروحه. لقد تمتعت كثيراً بوقتي هناك، مع أنني شعرت بالسعادة حين عدت!».

وسألته ممازحة: «عدت إلى أضواء المدينة؟».

رفع رأسه: «وهل هذا ما ترغبين في أن تعودي إليه تيس؟ الأنوار الساطعة؟».

كانت على وشك الإنكار بشدة لكنها كبتت الكلمات في الوقت المناسب، وقالت تعترف: «أنا لم أعرف حياة مثل هذه، الأنوار الساطعة... والإجازات الاستوائية المنعشة...».

وخشيت هنا أن تكون قد تمادت كثيراً، فمدت يدها إلى كأس العصير لتتجنب نظرته التي تسبب القلق، وأكملت بهزة كتف لا مبالية: «لقد



أمضيت وقتاً طويلاً ورأسي مدفون بين كتب الدراسة وغرف الطباية».

بدت الدهشة على بيرس: «ألم تحظي قط بعطلة استوائية؟».

فأجابت وهي تقلب الكوب بيدها: «حصلت على عطلة في «غولدن كوست» مرة، ولكن...».

وأخذت نفساً سريعاً: «... أفضل أن أذهب إلى مكان غير تجاري في المرة القادمة، مكان طبيعي، لم تشوهه المدينة، هادىء. ربما في إحدى الجزر... هايمان، هاملتون...».

وأحست بقلبها يخفق داخل صدرها بقوة.

ـ لقد باتت هذه الأماكن تجارية أيضاً هذه الأيام، ومكلفة.

ونهضت تيس من مقعدها فجمعت الأطباق الفارغة، والكأسين وحملتها إلى المغسلة الصغيرة... وأجفلت حين أحست بذراعي بيرس تلتفان حول خصرها من الخلف.

سارعت إلى التنحي جانباً، وانزلقت من قبضته ضاحكة. ثم قالت وهي تحاول ألاّ تنظر إليه: «سأبدّل ملابسي».

وجعلها منظره الرجولي الفج في هذه المساحة الصغيرة الملزمة، وذكرى ملامسته لها من الخلف، تتوتر لكنها أكملت: «سأسبح قليلاً، فالحرارة تزداد بشكل فظيع!».

لم تلحظ هذا قبل الآن، لكنها فجأة أحست بجسمها يتصبب عرقاً.

قال ساخراً: «أتريدين السباحة بعد كل هذا الطعام؟».

قالت توبخه: «ما كان يجب أن تأكل كثيراً! أنا بخير!».

أمسكت حقيبتها وهربت إلى الحمام.

ولم تجده حين خرجت. لكنها حين صعدت إلى السطح، وجدته ينتظرها بثوب سباحة أسود، وارتفعت الحرارة من عنقها إلى وجنتيها وهي تشعر بعينيه تراقبانها وهي تخلع القميص الذي لفته فوق ثوب سباحتها الأسود. لم تجد أمامها وسيلة للإفلات من نظرته إلاّ بتسلق السياج والقفز في الماء.

وقبل أن تلامس سطح الماء، كان يغطس إلى جانبها ببراعة... وبرزا معاً، يضحكان ويرفسان الماء المنصب على وجهيهما. وتحدته في سباق، مع أنها كانت تعرف أن لا أمل لها في التغلب عليه.

فصاح بها وهي تبتعد: «إذا لحقت بك فسأطالبك بعناق!».

ولحق بها طبعاً، وحصل على ما طلبه، فكان لها ما لم تختبره في حياتها. ولم يتوقف إلا بعد أن غاصا معاً تحت سطح الماء وخرجا يشهقان طالبين الهواء... وبعد فترة من اللعب والتسلية، استعادت شجاعتها، فأفلتت منه وعادت سابحة نحو المركب مع سحابة من الزبد الأبيض.

وحين أحست بيده على كتفها صرخت بحدة: «لقد أصابني التشنج! ساعدني لأصعد إلى المركب!».

وأخذت تتأوه وهي تتهاوى لاهثة فوق سطح المركب: «أنا ميتة! لقد قتلتني!».

سألها پيرس: «كيف حال التشنج».

ووقف إلى جانبها والماء يتساقط من أطرافه السمراء، والابتسامة الساخرة على وجهه.

وعندما رفعت نظرها إليه لم تتمكن من منع الضحك الذي تسلّل إلى عينيها.

فقالت مبتسمة: «أوه، أحسن حالاً الآن».

ـ أيتها العفريتة الصغيرة! لا أصدقك...

توسلت إليه: «ارمي لي منشفتي، هل تسمح؟ لا أظن أنني أستطيع الحراك، ولا أظن أنني سأتحرك ثانية، فأنا لم أستخدم مثل هذه الطاقة منذ سنوات!».

أمسك بمنشفتها فدلاها من أصابعه وقال ممازحاً: «ماذا تعطينني في المقابل... عناق آخر؟».

فردت بحدة: «يجب أن تعلم يا پيرس برانسون أنك لن تحصل على كل شيء على طبق من ذهب! إضافة إلى هذا، أنت مدلل بما يكفي، ولن يضرك



ألاّ تحصل على ما تريد لمرة واحدة..».

ـ مدلّل، أنا؟

وركع على ركبتيه إلى جانبها، وبدأ يجفف كتفيها وساقيها بالمنشفة، فأحست بالدفء يجتاحها. وجلست مستوية، تنتزع المنشفة منه، وهي لا تزال مقطوعة الأنفاس: «ستحترق بشرتي لو بقيت هنا!».

ولفت المنشفة حولها ووقفت: «سأنزل لأرتدي ملابسي!».

سمعت المحرك يدور وهي في الأسفل. وحين ظهرت على السطح ثانية، كان پيرس قد ارتدى بنطلونه القصير وقميصه، وكان يرفع حبل المرساة، استعداداً للإبحار. وما إن خرج من الميناء مرة أخرى حتى رفع الشراع.

كان اليوم الذي أمضته تيس برفقة پيرس يوماً رائعاً، وأحست أن پيرس يتمتع بيومه مثلها تماماً... أم أنه يتمتع بالصيد؟

في ما بعد، وفي طريق العودة إلى منزلها، علق پيرس بشيء من الدهشة:

ـ لا استرخيت، ولا ضحكت ولا تمتعت بوقتي هكذا، منذ زمن طويل.

فقالت بصوت فيه رنة مزاح: «أنا سعيدة لرؤيتك تستمتع بأشياء بسيطة وطبيعية».

فأدار رأسه ليبتسم لها ابتسامة بطيئة غامضة.

ـ ومن الجيد كذلك أن أراك تستمتعين بأشياء لم تختبريها من قبل تيس، مثل الإبحار والتمتع بعروضات الأوپرا، و...

ورفع حاجبه: «... والعشاء بأناقة».

ورددت: «العشاء بأناقة؟ وهل تتكلم عن غداء الفلاح الذي تناولناه؟».

فضحك: «ليس بالضبط... أنا أتحدث عن مساء الغد، أريد أن آخذك إلى «كابيلز» تيس. هل زرته من قبل؟».

مساء الغد... ابتلعت ريقها، إنه لا يضيع وقتاً! لكن، أوليس هذا

بالضبط ما تأمل به؟ أن تأسر اهتمامه؟

في نهاية الأسبوع القادم أي بعد أسبوع من الآن قد يذهب لرؤية والده، فيصطحبها معه.

واعترفت ببطء: «لا، لكنني أظنك وسط قضية قانونية كبيرة؟».

ـ هذا خلال النهار! لكنني أتحدث عن المساء، فالليل أمامنا! لا ترفضي يا تيس!

يجب أن ترفض، يجب أن توقف كل هذا على الفور، التغرير به لمجرد الحصول على لقاء مع جوليوس برانسون... ولكنه ربما هو أيضاً لا يريد إلا شيئاً واحداً منها وسينبذها لحظة تستسلم له. كان كل هذا يبدو غير مناسب، غير صائب... فمن الإجحاف أن تدّعي بأنها مهتمة به، وأنها تتمتع بنمط الحياة المترفة، وأن تتظاهر بأنها تريد عطلة في المناطق الاستوائية، كل هذا... كل هذا خداع حقير!

لكن، كيف لها أن تقابل جوليوس برانسون المنعزل عن الناس؟ كيف لها أن تجد الحقيقة عن والدها؟ لن يؤثر هذا سلبياً على بيرس برانسون بل قد يعرف أن ليس كل النساء يلاحقنه ويلاحقن ملايينه.

قالت أخيراً: «حسناً جداً، ربما».

وكانت تعرف جيداً أنها لن ترفض، أنها لا تريد أن ترفض في قرارة قلبها.

تمتم، راضياً: «ما رأيك أن نأخذ معنا طعاماً جاهزاً ونحن في طريقنا إلى البيت، ونأكل عندك؟ لن أطيل البقاء، لدي بعض الأمور أحتاج لتفحصها قبل قضية الغد».

ماذا يعني أنه لن يبقى طويلاً؟ وأحست بالذعر... فخمس دقائق في بيتها الصغير الحميم، يمكن أن تكون وقتاً طويلاً! إنها لا تثق به، ولا بنفسها... وذكرى عناقهما بعد ظهر اليوم ما تزال حية في رأسها! لا... عليها بطريقة ما، بين اليوم ونهاية الأسبوع المقبل، أن تتجنب الأماكن المنعزلة معه!



وتنهدت: «هل تمانع لو أجّلت هذا بيرس؟ أنا منهكة، وأرغب في حمام طويل، ويجب أن أغسل شعري... سأحضر بعض السلطة ثم أرتاح.. لدي صداع خفيف، من تأثير الشمس... أنا أعتذر.

ـ ما من مشكلة.

وبدا مرحاً، دون أثر للتعاطف معها! فهو لم يصدق أنها مصابة بصداع، ولا عجب في هذا! فقد بدت في صحة جيدة من الإشراق الظاهر على وجهها، والشرارات الحية في عينيها... وشعر بابتسامة يوم كامل من المتعة متعلقة على شفتيها!

حين أوقف السيارة خارج المبنى السكني، كانت قد جمعت أغراضها، استعداداً للخروج، خشية أن يغيّر رأيه ويُصر على إيصالها إلى الباب، ثم على الدخول ربما، لمجرد دقيقة، أو اثنتين، أو ثلاثة...

استدارت لتشكره، ورأت يده على الباب فقالت بسرعة: «لا داعي لتخرج».

وفتحت بابها لتقفز إلى الخارج: «شكراً لهذا اليوم العظيم. إلى اللقاء!».

وسارعت إلى البوابة.

عند البوابة رأت شخصاً آخر يتقدم بخطوات واسعة على الممر، ولمحت خلفه، سيارة ڤولڤو خمرية مألوفة.

تنفست: «أندرو!».

واشتد ضغط فمها، وقفزت نظرتها إلى سيارة بيرس الجاغوار التي لم تبتعد بعد، فاكتشفت أنه يترجّل منها... ربما ظن أنها تحتاج إلى حمايته؟

قال أندرو وعيناه تقدحان شرراً عليهما: «إذن، تركتني لأجله!».

فردت بحدة: «وهل كنت تتجسس عليّ أندرو؟ منذ متى وأنت هنا؟».

التوت شفته: «ليس طوال النهار والليل، أطمئنك».

وضغط على كلمة «الليل».

ـ لقد جئت ليلة أمس لأرى كيف حالك، ولم أجدك في المنزل، وحين

عدت هذا الصباح وجدت أنك ما زلت في الخارج... لقد أمضيت الليل معه، أليس كذلك؟ وطوال النهار كما يبدو...

صاحت ساخطة: «أوه أندرو،! كنت طوال اليوم أبحر، وليلة أمس كنت مع باميلا.. اذهب واسألها! هذا لا يعني أنني مضطرة لأقدم لك تقريراً عن تحركاتي... لقد افترقنا، ألا تذكر؟».

ـ أوه، أجل لقد رميتني لحظة رأيت من هو أفضل!

ونظر أندرو بخبث إلى پيرس: «لقد عرفت جيداً أنني لن أستطيع أن أقدم لك ما يستطيعه برانسون!».

احمرت وجنتا تيس، وعرفت أن پيرس سمع كل كلمة تقال، ولا بد أنه الآن يظنها تبحث عن الثروة!

وقالت في وجه أندرو: «من الجيد جيداً أننا افترقنا أندرو، لأن رأيك بي ليس جيداً، على ما يبدو، فأنت لم تعرفني حقّ المعرفة!».

وتدخل صوت پيرس الهادىء: «ما من أحد سرق تيس منك أندرو، فأنت لا تملكها... أين خاتم الزواج؟ أين خاتم الخطوبة؟».

فرد أندرو بحدة: «ليس بالضرورة أن تضع خاتماً في يد امرأة لتكون ملتزماً.. كان بيننا تفاهم!».

صححت له تيس بحدة: «تعني أننا كنا نخرج معاً!».

ـ طلبت منك الزواج!

ـ وأنا رفضت، لأنني لم أشأ الزواج بك... لم أكن متأكدة من مشاعري نحوك.. كنت مترددة، ولم أقبل أن أسكن معك، ألا تذكر؟

ـ وسرعان ما اهتديت إلى قرار، حين تدلى المال أمام عينيك!

أخذت تيس نفساً عميقاً حاداً، فكيف ستدافع عن نفسها ضد هذا؟ لا بد أن الأمر يبدو هكذا بالضبط!

قالت بضجر: «أندرو، اذهب إلى منزلك، من العبث تحريك جمر خامد».

ولم تستطع النظر إلى پيرس... ما من شك أنه سيكون سعيداً في



التخلص منها بعد هذا.

ـ أنا متعبة ومصابة بالصداع، وسأدخل لأستحم!

استدارت مبتعدة دون أن تلقي أي نظرة إلى الخلف على أي منهما، وعرفت بقلب غائر، أنها قد تكون آخر مرة ترى فيها پيرس برانسون أو تسمع عنه مرة أخرى.

***

# ٦ ـ السمكة والصيّاد

لم تكن تيس واثقة من دوافعها حين قصدت المحكمة، بعد انتهاء المعاينات الصباحية في اليوم التالي. ولم تكن واثقة ما إذا كان مجرد الفضول يدفعها إلى مشاهدة پيرس وهو يعمل، أو أنه شيء من القنوط، تولد من شك أحست به بعد ليلة أمس! لقد ذكر پيرس شيئاً عن تناول العشاء معاً هذه الليلة... كان هذا قبل أن يظهر أندرو، وقد افترقا من دون خطة محددة. بعد كلام أندرو الجارح، ربما تبددت الخطط كلّها... إلا إذا أخذت هي زمام المبادرة.

إن لمحها پيرس في المحكمة، وعرف أنها تظهر اهتماماً بقضيته، فقد يدير هذا دفّة الميزان لصالحها.. حاولت ألاّ تفكر في أن الأمر قد ينقلب ضدها، وأن تعليقات أندرو، أقنعته أنها تسعى وراء ماله فقط!

ولهذا السبب، ارتدت قميصاً واسعاً لا شكل له، فوق تنورة طويلة، لا تلفت الانتباه لها، مع قبعة سوداء ضمت فيها خصلات شعرها النحاسي اللماع وحين وجدت قاعة المحكمة، المكتظة، تسللت إلى الصف الخلفي، حيث جلست تنتظر بهدوء بدء المحاكمة.

كان أداء پيرس في المحكمة مثيراً للإعجاب، فبعد ما قاله أندرو عن أنه يمضي وقته يتسلى، ويتلاعب بالقانون، توقعت أن تجده محامياً مبتدئاً يساعد محامياً أكبر منه، أو يجلس متكاسلاً في مقعد، يعبث بقلمه، ويحاول التظاهر بالاهتمام في محاولة منه لإخفاء مله.

لكن پيرس بدا الوحيد الذي يدافع عن القضية، ولم يبالغ حين قال لها



إن لديه قضية أساسية. فموكلته متهمة بقتل زوجها بعد أن أمضى سنوات في ضربها والإساءة إليها.

ما كادت تيس تعرف پيرس، بشعره الأسود المخبأ تحت شعر رمادي مستعار وجسمه الرياضي المغطى بثوب المحاماة الأسود. لكنه سحرها، منذ فتح فمه، فقد كان جدالاً حاداً ومحدداً وأسئلته للشهود قوية وتعاطيه مع هيئة المحكمة مميّزاً فيه براعة، وعندما نظرت إلى وجوههم، استشفت الإشفاق على موكلته في عيونهم، والاهتمام لكلامه. ثم تسللت إلى الخارج خلال الاستراحة، لتعود إلى عيادتها، من دون أن يخالجها أدنى شك أنه سيكسب قضيته، ويبرىء موكلته.

هل شاهدها؟ لن تعرف أبداً، فقد كانت مختبئة بمن كان أمامها كل الوقت، وكل ما تستطيع فعله الآن هو أن تنتظر، وتأمل.

كلما رن جرس الهاتف، كانت تقفز، متوقعة أن يكون هو، ولو أنها تعرف أن هذا مستحيل، لأنه ما زال في المحكمة.

حين اتجهت إلى بيتها، وهي تتضور جوعاً، بعد أن فوتت وجبة الغداء لتذهب إلى المحكمة، سارعت إلى آلة الرد الآلي، وحين سمعت صوته كاد يغمى عليها ارتياحاً.

«سأمر لآخذك في السابعة والنصف، سنذهب إلى «كابلز»، لذا ارتدي ثوباً فاتناً أكثر من ذاك الذي كنت ترتدينه اليوم في قاعة المحكمة».

لقد شاهدها إذن! ولم تستطع أن تصدق، فهل سيوبخها لتسللها إلى قاعة المحكمة من دون أن يراها أحد؟ هل سينظر إلى الأمر وكأنها تتجسس عليه؟ وتأوهت...

قامت بجهد مميز تحضيراً لذلك المساء، واعتنت كثيراً بشعرها وتبرجها، واختارت فستاناً نادراً ما كانت ترتديه، لأن لونه الأزرق ملفت للنظر أضف أنه قصير.. حين ارتدته للمرة الوحيدة في حضور أندرو تذمّر مدعياً أنه يكره أن تستعرض نفسها هكذا.

فقال: «الجميع يحدق إليك.. إنني محرج. أنت طويلة بما يكفي، دون

اجتذاب المزيد من الاهتمام إلى مفاتنك!».

وأحست يومها بالصدمة... لقد صرفت ثروة على الفستان.. قالت له بحدة: «لقد قلت لي أن أرتدي شيئاً براقاً ومبهرجاً لأنك تريد أن تظهرني أمام أصدقائك المحامين».

فأجابها: «حسناً، تخليت عن تعقلي لمرة، ولن أفرضه عليك مرة أخرى!».

ولم ترتد ذلك الفستان سوى مرة، في حفل زفاف فات أندرو حضوره لأنه كان مسافراً.

وقفت مترددة أمام مرآتها الطويلة. المؤكد أن بيرس برانسون لن يشعر بالاحراج لارتدائها هذا الفستان؟ على أي حال، هو فستان بسيط حقاً. لكنه قصير، وبراق، حزامه من القماش البسيط، وهو يبرز ضيق خصرها، وهذا بدوره يزيد من بروز ثنايا جسمها. وكان الفستان من دون أكمام، له رباطان رفيعان فوق الكتفين، والياقة المستقيمة كانت تنمّ عن حسن ذوقها... لا شك أن أندرو كان يبالغ كعادته! وقررت أن تترك عنقها من دون حلي، كي لا تجذب الاهتمام إليها.

وقالت لنفسها: «لا... لقد جعلك أندرو تصابين بعقدة الاضطهاد، ولا داعي أن تشعري بالخجل.. إنه فستان رائع لليلة صيف حارة، ورائع لمطعم مثل كابلز!».

حين سمعت قرع بابها، كانت تنتظر بهدوء.

- واو!

ولمعت عينا بيرس السوداوان، وأحست بخوف مفاجيء.

سألت بسرعة: «هل هو متألق جداً؟ قصير جداً؟ مثير جداً؟».

- يا الله! لا، وأعتقد أنني اخترت المكان المناسب لك لإبرازه. هل نذهب؟

وتلاشت ابتسامتها وهي تلحق به... مكان لإبرازه... هل يظن أن هذا ما تريده؟



فكشفت له:

- في الواقع، نادراً ما أرتديه، فأنا أكره جذب الأنظار.

فهي لم ترغب في سوى أسر عيني بيرس وليس عيني أحد غيره!

رفع حاجبه، ولمعت عيناه الماكرتان: «لو عرفت هذا، لأخذتك إلى شقتي واستدعيت الطعام إلى هناك.. أؤكد لك تيس، ستكونين محط أنظار الجميع، أينما ذهبنا».

وأحست بنبضات قلبها تتسارع لفكرة قضاء أمسية حميمة في منزله، فالمطعم أكثر أماناً من البقاء مع بيرس وحده...

أكدت له، برفعة رأس غير مكترثة: «سأحاول ألاّ أتلوى تحت ثقل النظرات».

فرد بهدوء، وعيناه تلمعان لمعاناً مغرياً: «هذا ما سأرغب في رؤيته».

لكن المتواجدين في مطعم كابلز كانوا أكثر تأدباً من «البحلقة» ولو أنه كان هناك الكثير من النظرات المختلسة وهما يتوجهان نحو طاولتهما...

كانت ممتنة له لعنايته بها وهما يستقران لتناول الوجبة، وسألته وهي تراقب وجهه لترى ردة فعله: «أرجو ألاّ تكون قد مانعت مجيئي لمشاهدتك في المحكمة.. لم أعرف أنك رأيتني».

حملت ابتسامته شيئاً من العجرفة: «أوه، أنا لا يفوتني شيء وأنا في قاعة المحكمة، ثم لا... لماذا أمانع؟ لقد أشبعت غروري، هل أثارت القضية اهتمامك؟».

- كثيراً، لقد أحسست بالشفقة على المرأة المسكينة.. الواضح أنها ترددت كثيراً قبل قتله، بعد ضربها ومعاملتها بوحشية طوال سنوات. بدت لي وكأنها لا تزال مصدومة، وأنا واثقة أن هيئة المحلفين متعاطفة معها.

- في الوقت الحاضر، هم إلى جانبها، ودعينا نأمل ألاّ يفاجئنا وكيل الادعاء في اللحظة الأخيرة، قبل أن تنتهي المحاكمة، في الأيام الثلاثة القادمة.

- أتعني أن يبرز شهوداً يحاولون تشويه اسمها؟

- كل شيء ممكن.

ونظر إلى عينيها لحظة بتركيز جديد، وكان من الصعب القول ما إذا كانت النظرة تخفي الدهشة أم التسلية، أم التسامح، أو شيئاً من الاحترام حتى.

وقالت بعد أن ارتشفت جرعة ماء مثلجة: «حسناً. أتمنى لك كل الحظ، وأتمنى أن تنجو».

ثم أضافت بتهور: «أنت تتعامل مع القضية بحساسية، جدالك...».

وصمتت، تكاد تقول «خطف أنفاسي...»، لكنها لم ترغب أن تتسرع، وقالت بدلاً عن هذا: «كان أقوى بكثير من أي شيء جاء به الادعاء».

لكن، لم يكن جداله فقط ما أثر فيها، بل صوته وتصرفاته والقوة في توصيل آرائه... يا لها من خسارة لمهنة المحاماة حين يموت والده، أو يتقاعد! لأنه عندئذ سيكون مضطراً أن يدير امبراطورية برانسون الإعلامية.

- ألن تجد صعوبة في التخلي عن المحاماة حين يحين الوقت؟

وأخذت نفساً عميقاً حين هز كتفيه وبدا كارهاً أن يرد، فأكملت:

- أعني... حين تتولى إدارة أعمال والدك.

نظر إليها بطريقة لم تستطع فهمها... هل تظهر له الكثير من الاهتمام؟ وتصورت أن پيرس برانسون، يفضل أن يقوم هو بملاحقة المرأة وليس بالعكس.

لكن الفضول لمعرفة نواياه المستقبلية، دفعها إلى إكمال حديثها. فسألته: «أنت تخطط لترك القانون، أليس كذلك؟».

أملت أن يردّ عليها بالنفي وأن يكون ما سمعته عن احتمال استبقاء مهنته صحيحاً... كم من المؤسف ألاّ يفعل.

فقطب وهو ينظر إلى كأس العصير، وأصابعه تتلاعب بحافته الكريستالية ثم قال بهزة كتف أخرى: «حسناً، لن أتمكن من استبقاء



الأمرين معاً».

وبدا من الواضح أنه يعني أن هذا ليس من شأنها!

وافقته الرأي: «لا، بالطبع لا».

وأخفت خيبة أملها... هل سيتخلص من الموضوع هكذا؟ وبسرعة تحولت إلى موضوع آخر فهي لم تود أن يعتقد بأنها تنتقده، أو أسوأ من هذا، أنها تبدي اهتماماً به، فقد يظن أنها جادة في علاقتها معه!

وحين أوصلها إلى منزلها، وأوقف السيارة عند بوابة المبنى، سألها ما إذا كان باستطاعته الدخول، وتسبب سؤاله بخفقان قلبها، وبعد لحظة تردد، هزت رأسها موافقة.

وقالت وهي تفتح بابها الأمامي وتتركه يدخل: «قهوة فقط».

فابتسم ساخراً، ورفع حاجبه: «هذا ليس الموعد الأول تيس، وليس الثاني. حتام ستدعينني أنتظر؟».

تخلى قلبها عن إحدى ضرباته، وتساءلت متأخرة جداً عما إذا كانت مجنونة لدعوته إلى الدخول... إلى ماذا يمكن أن يقود كل ذلك؟ لم يحصل پيرس برانسون على سمعة زير النساء في العالم الغربي لأنه يحب شرب القهوة فقط! ونظرت إليه بارتياب، وبشفتين ملتويتين: «لو أعرف أن عناقاً بسيطاً يكفيك...».

وبدأت خفقات قلبها تتسارع لفكرة معانقته لها وما يعنيه...

وفجأة أدارها لتواجهه ويداه الساختنان على كتفيها، وخرجت تنهيدة هامسة من شفتيها. لم ترد المقاومة ولا الابتعاد عنه. بل رفعت وجهها إلى وجهه، واستطاعت أن تشعر بالتوتر بينهما، وأحست بكل هواجسها ونواياها الطيبة تتبدد فجأة.

أمسك وجهها بين يديه ودنا منها، وسألها بصوت كالحرير: «لا تخافي تيس، أنا أجد عناقك كافياً على الدوام».

فتحت فمها: «أنا أعني...».

لكنها لم تكمل...

وللثواني القليلة التالية ضاعت في دوامة من الأحاسيس، فقربه منها كان يحجب كل حقيقة واقعة وكل تعقل، لكن، ما إن أحست بنفسها تغرق وتكاد تفقد صوابها، حتى قامت بمقاومة جبارة لتستعيد أحاسيسها التي ضاعت، ودفعته عنها.

ثم قالت شاهقة وضربات قلبها كالرعد في أذنيها: «هاك! لا تستطيع القول إن هذا لم يكن مرضياً...».

ورفعت نظرها إليه، وعيناها ما زالتا زائغتين.

فقال بصوت منخفض: «كنت أفكر بعناق يدوم الليل كله».

وكان صوته مغوياً كالمخمل الصافي وعيناه السوداوان مقنّعتان بتعبير ماكر، فما يعنيه واضح.

فهزت رأسها رفضاً، مع أن عينيها كانتا تغرقان في عينيه وهما تقولان شيئاً مختلفاً.

مرر اصبعاً خفيفاً كالريش على خدها: «لماذا تحاولين بكل جهودك المقاومة تيس؟ أعرف أن هذا ما تريدينه، ما تتشوقين إليه، مثلي تماماً».

وانتشرت الحرارة فيها ولم تستطع إلاّ أن تهز رأسها مجدداً، فقد كانت تخشى لو فتحت فمها لتقول لا أن تخرج كلمة نعم بدلاً منها!

فسألها بغضب: «السبب هو أندرو؟».

انحلت عقدة لسانها وشهقت: «لا! بالطبع لا! هذا أمر انتهى».

ورفعت ذقنها: «وبالرغم من كل ما قاله أندرو ليلة أمس.. لا شأن لك به».

رفع بيرس حاجبه وعيناه السوداوان تتفحصانها... ألم يصدقها؟

ـ إذن، ما الذي يلجمك، تيس!

فقالت بضعف: «أنا... الوقت مبكر جداً».

ـ تيس...

ومد يده إليها، فتراجعت بعيداً عنه. قطب حاجبيه، وترك يديه تهبطان.



ـ كلانا يعرف أن هذا ما نريده تيس، فلماذا الاستمرار في المقاومة؟ لسنا صغاراً أبرياء، كلانا يعرف ما نفعل، أريدك تيس.

وزادت حدة اللهجة الغاوية: «لم أرغب في امرأة هكذا من قبل».

فأدارت رأسها بحدة لهذا الكلام... هل يستخدم هذه الكلمات ذاتها مع كل امرأة يريد الإيقاع بها؟ أم تراه يستخدمها فقط مع من تحتاج إلى المزيد من الإقناع؟

قالت ساخرة: «وما يريده بيرس برانسون، يجب أن يحصل عليه؟».

وسمعت بخوف القسوة في صوتها، ولكي تغطيها، قالت ساخرة: «لا أعتقد أنك حرمت من أي شيء أردته في حياتك كلها!».

كانت تلعب لكسب الوقت، آملة أن يبدد تبادل الكلمات القوية من حماسته، وحماستها، من دون أن يدفعه بعيداً عنها، كما كانت تأمل.

فقال بيرس بشراسة، وعيناه السوداوان تحترقان في عينيها الزرقاوين:

ـ لم يكن في حياتي ما أردته كما أريدك يا تيس.

ضحكت ضحكة متوترة، وردت بتهور: «وما إن أستسلم لك، وما إن تخرجني من رأسك حتى تريد شيئاً آخر! أو شخصاً آخر!».

انخفضت جفناه قليلاً... وفكرت برضا أن كلامها لجمه ودفعه للتفكير، لكن رضاها كان مغلفاً بندم قليل. وتنفست بارتجاف، آملة ألاّ يكون ردها المتهور قد ألمح إلى أنها ستنظر إليه على محمل الجد، فآخر شيء تريده، هو أن تخيفه وتبعده!

وكان صوته غريباً حين تكلم: «إذا كنت تريدين علاقة عميقة لها معنى يا تيس، وخاتم ذهبي في إصبعك...».

صاحت: «لا!، أنا أعني...».

واحمر وجهها... خاب أملها لأنها أعطته الانطباع الخاطىء، ولسوف يهرب بعيداً عنها لو ظن أن لها خططاً بعيدة المدى، بعد ذلك، كيف ستتمكن من مقابلة جوليوس برانسون؟

توسلت إليه بكل قوى عينيها الزرقاوين قائلة: «بيرس، ألا يمكن لنا

فقط أن... أن نمرح قليلاً ونرى بعدها ما سيحدث؟ وأنا لا أعني ذلك النوع من المرح! ليس... ليس بعد!».

وشهقت لأنها وجدته يأخذ كلامها على أنه دعوة له وأخذ خطوة نحوها وعيناه السوداوان ضيقتان، ضبابيتان، من الصعب قراءتهما.

لكنه كان مرتاحاً تحت جفنيه المرتجفين، واستطاعت أن تشعر بهذا... منذ ثانية مضت بدا متوتراً، أما الآن فلا. لم يعد يريد أن يتورط، أكثر مما تريد.

قالت بحزم: «بيرس، سأقول لك ليلة سعيدة».

واستدارت عنه تتجه إلى بابها الأمامي: «لديك محكمة في الصباح... ولدي مرضاي...».

وفتحت الباب، لتقول متوسلة حين حاول اللحاق بها: «أرجوك».

- ستقولين نعم في النهاية تيس.

وابتسم ابتسامة نمر مفترس، واثق من غنيمته، وأجبرت نفسها على مبادلته الابتسامة.

ثم توسلته: «أعطني أسبوعاً بيرس.. المزيد من الوقت لنعرف بعضنا أكثر...».

أن تضع شروطاً على رجل اتهمته منذ لحظات بالفساد لمغامرة كبرى. فبإمكانه أن يضحك في وجهها، ويذكرها أن في البحر سمك وفير، سمك سهل الصيد وأكثر بهجة.

عندها، ستضطر إلى إيجاد طريقة أخرى للوصول إلى جوليوس برانسون، ولو أن الله وحده يعرف كيف. لكنها كانت تشعر نحو بيرس بشيء دفين لا علاقة له بجوليوس برانسون، اللعنة! إنها تستمتع بصحبة بيرس، بغض النظر عن كل شيء... فهو ذكي مثير وكانت تدهشها الأوجه الكثيرة لشخصيته... قد يكون زير نساء يحب المرح ولا ينوي الاستقرار في القريب المنظور.. وهو ثري رفيع الشأن واثق جداً من نفسه لكنه يأخذ بعض الأمور بجد كعمله. وكانت واثقة كذلك من أنه جاد في



تحمل مسؤوليات أعمال العائلة، لأنه يقضي شريحة كبيرة من وقته يعمل مع أبيه، وفي نهايات الأسبوع، يفضل الإبحار، التسابق بمركبه، والاختلاط بالنخبة التي تبقى على متن مراكب عائلته، مثل يخت أبيه العظيم. أما بالنسبة لتلك الليلة التي أقيم فيها احتفال للنخبة الهامة من المجتمع، فلم يحضرها إلاّ للقيام بواجبه العائلي، وليس لأنه أراد أن يستعرض نفسه.

تقدم بيرس خطوة نحوها، وأجفلت، لكنه هذه المرة لم يحاول أن يضمها بين ذراعيه، بل مد يده يلامس خدها، وهذا ما كان كافياً لتتنفس بحدة.

وقال مبتسماً: «حسناً يا تيس، لا مزيد من الضغط لأسبوع لكنك سوف تنهارين قبل هذا، أعدك».

واستدار مختفياً في ظلام الليل.

لم يمر يوم من الأسبوع التالي على تيس بدون رؤية بيرس أو سماع صوته. كانا يتبادلان أخبار ما يفعلانه ويلتقيان ساعة يتمكنان من اللقاء، إما للعشاء أو لغداء سريع خلال النهار، واعترف بيرس أنه إضافة إلى المحاكمة التي تشرف على النهاية الجيدة، كان يراقب عن كثب أعمال أبيه، ريثما يتعافى جوليوس في الشمال. وتساءلت تيس كيف يستطيع التعاطي مع كل هذا ويخصص وقتاً لها. وتذكرت ما قاله أندرو من أن بيرس يلعب في مهنة المحاماة، ويلعب بأعمال العائلة، وأنه ببساطة يحب أن يلعب، لا غير. وتساءلت عما إذا كان في هذا شيء ما، عما إذا كان ينتظر الفرصة الملائمة... يتلاعب بالعملين معاً إلى أن يأتي الوقت ليستولي على امبراطورية أبيه الضخمة، فهو بالتأكيد لن يستطيع الاستمرار بالعملين معاً، وأن يعدل بين مهنتين مختلفتين متطلبتين لأمر مستحيل بلا شك. لقد اعترف بنفسه أنه لا يستطيع التوفيق بين الأمرين، وحين يأتي الوقت، يجب أن ينتهي عمله القانوني الواعد، وهذا أمر مؤسف...!

لكن لا شأن لها بهذا، فلديها أشياء أخرى تقلقها. ومع اقتراب نهاية الأسبوع، ونجاح قضية بيرس، وقبول هيئة المحلفين ادعاء موكلته،

وتبرئتها، أصبحت تيس أكثر توتراً وحدّة. فهل سيذهب پيرس إلى جزيرة العائلة من دونها؟ وهل سينسف هذا فرصتها للقاء جوليوس برانسون؟

يجب أن تتأكد من عدم حصول هذا! فقد حاولت أن تبقي پيرس بعيداً عنها حتى نهاية الأسبوع، على أمل أن تذهب معه إلى جزيرته الاستوائية، وستعرف ما إذا كان جوليوس برانسون والدها أم لا، لكن، ماذا إن لم تقابل جوليوس في نهاية هذا الأسبوع؟ أو لم تحصل على الفرصة للقائه؟ لن تستطيع الاستمرار في استغلال پيرس دون نهاية، بغض النظر عما إذا كانت ستستسلم له أم لا، فهذا غير منصف له، حتى ولو كان يسعى وراءها لأجل شيء واحد.

فتنهدت، وقد هزها وخز الضمير. لم تكن تنوي أن تخرج الأمور من يدها... وأن تنجذب هكذا لپيرس، أو أن يصمّم هو على ملاحقتها!

في كل مرة التقت فيها پيرس خلال الأسبوع لتناول وجبة أو قهوة، كانت تسأله عن أبيه بدقة شديدة، فتقود الحديث بطريقة عفوية حول جزيرة العائلة وعما إذا كان والده يجد الجو الاستوائي شافياً، وهل يبقى على اتصال بشركائه المختلفة أم أن پيرس هو الذي يتولى كل شيء بينما يمضي والده فترة النقاهة؟

وأجاب پيرس على السؤال الأخير بضحكة خفيفة: «والدي يضع دائماً إصبعه على كل شيء فحتى لو كان على فراش الموت، فسيبقى الهاتف ملتصقاً على أذنه».

أحست تيس بقشعريرة لفكرة أن يكون جوليوس على فراش الموت... وأن يموت سره معه... وسألت: «تعني، أنه يجد صعوبة في الاسترخاء؟».

- أوه، إنه يأخذ إجازات، فهو وأمي يسافران مرة في السنة على الأقل، إلى إيطاليا أو اليونان أو إلى أي مكان يستهويهما. توم وفوبي، وأنا، نمسك بزمام الأمور في غيابه. لكن، في حال وجود قرار رئيسي يجب اتخاذه، فجوليوس هو من يتخذه، حتى ولو كان في الريڤيرا الإيطالية، لأنه دائم



على اتصال بنا.

- ألا يصيبك الإحباط من ألاّ تستطيع اتخاذ قرار بنفسك؟ أوَلا تشعر بالقنوط لأنك لا تملك السيطرة الكاملة؟

ألهذا السبب يقضي معظم وقته في عمله كمحامي؟ ليعطيه هذا إحساساً بالسيطرة، على الأقل في مجال واحد من حياته؟

هز پيرس كتفيه: «قد لا يكون لي يد على مركز إداري، لكن لدي عدد من المناصب الإدارية في شركات العائلة، كما يحصل في معظم العائلات... هكذا يكون لنا جميعاً رأي في اتخاذ القرار ولكن لماذا كل هذا الاهتمام يا تيس؟ هل ترغبين في أن تريني أتولى الإدارة الكاملة؟

وابتسم ابتسامة جانبية، وفي عينيه لمعان لم تستطع قراءته.

صاحت: «يا للسماء، لا! فهذا قد يعني أن والدك...».

وعضت شفتها، فقد تكون تتحدث عن موت والدها هي!

- پيرس، أنا... لم أقصد أنني أريد... أن والدك...

وصمتت غاضبة من نفسها، وحاولت أن تضحك: «إنه يتعافى من عملية مرارة جراحية ولا يعاني من مرض يهدد حياته! وأنا واثقة أنه سيعيش لمدة طويلة، كما آمل!

وأدركت بوخز ضمير أن پيرس كان ينظر إليها بشكل غريب جداً، فقد تكلمت بحماسة كبيرة.

- هل تودين مقابلته، تيس؟

حدقت إليه فاغرة فاها، وسمعت نفسها تقول متلعثمة: «ما... ماذا تعني؟ إنه... إنه في الشمال».

توقعت أن يقول لها إنه يعني حين يشفى ويعود إلى سيدني، لكنها لم تكد تصدّق نفسها حين سمعته يقول: «هذا صحيح، وأنا ذاهب إلى هناك في نهاية هذا الأسبوع، ويمكنك مرافقتي تيس».

كتمت أنفاسها، وبذلت جهداً كبيراً لتخفي بهجتها، وشوقها: «أنا، أنا...».

- سأذهب إلى «روكهامينون» يوم الجمعة، أي صباح الغد، وسيرسل جوليوس الهليكوبتر لتحملني من هناك، ويمكن أن نعود في وقت متأخر من يوم الأحد، أو صباح الاثنين.

ارتفع حاجباه: «هل يمكنك أن تأخذي عطلة يوم الاثنين... سيعطينا هذا يوماً إضافياً هناك».

ففكرت بسرعة: «لدي عملية جراحية بعد ظهر الإثنين. وسأحاول إعادة ترتيب مواعيدي».

وذهلت من نفسها... أتؤخر مرضاها؟ هذا أمر لم تفكر فيه من قبل، هل سيفكر پيرس عن سبب قفزها بجنون للتمسك بهذه الفرصة؟ وتنهدت. سيعتقد أنني أفعل هذا لأجله.. لن يظن شيئاً غير ذلك؟

قال پيرس بسهولة: «حسناً، إذا كنت لا تستطيعين، نستطيع العودة صباح الاثنين».

فقالت: «سأعلمك في الصباح، وهل قلت لوالدك إنك قد تأخذني معك؟».

لو كان جوليوس برانسون والدها، فمن الإنصاف تحضيره لمقابلتها... يجب أن يكون على علم باسمها، فهو الذي كان يرسل لها المال كل تلك السنوات، وقد لا يريد منها أن تأتي.

- لقد قلت لأمي، إنني آمل اصطحاب سيدة فاتنة ذكية، وطبيبة أمراض الالتهابات المفصلية، وذكرت لها كذلك أنك حمراء الشعر مذهلة... وتتمتعين بحس المرح ولقد علقت أمي أنّه من اللطف أن آتي معي إلى البيت بفتاة فيها شيء من الذكاء والمرح، وأمي واقعية جداً، ولديها روح مرحة كذلك، ولا شيء يزعجها.

أخذت تيس نفساً مرتجفاً، إذا لم يكن هناك شيء يزعج والدة پيرس، فلماذا حرص جوليوس برانسون طوال هذه السنوات على إخفاء ابنته؟ ألأنها ليست ابنته؟ هل يمكن أن يكون مايكل لورنس مخطئاً؟

لكن كيف يمكن أن يكون مخطئاً؟ ومن يمكن أن يكون والدها؟ لا بد



أنه شخص مقرّب من أمها ليعتني بها مدى الحياة... شخص متزوج وغني ليضع تيس في مدارس خاصة وفي الجامعة، ولإعالة أمها بحيث لم تحتج للعمل بعد ولادة تيس، وقد كان ذلك نعمة حقيقية بالنسبة إلى أمها، لا سيّما أنها عانت من داء التهاب المفاصل الذي سبّب لها الشلل. ربما كان الأمر أكثر من شراء سكوت. لكنه على أي حال، شخص مسيطر، ليجعل المحامي يخفي الأمر طوال تلك السنوات.. بالتأكيد لا يوجد سوى قلة من الرجال عدا جوليوس برانسون لديهم السلطة أو الوسيلة...

وقاطعها صوت پيرس: «لماذا كل هذا التنهد؟ هل أنت متوترة الأعصاب تيس؟».

ضحكت وقد احمر وجهها... لم تعِ أن پيرس كان يراقبها عن كثب.

- حسناً، ربما، قليلاً.

ولماذا الإنكار؟ فمعظم الناس يتوترون في حضرة هذا الرجل القوي لا سيّما أنّه طاغ ومخيف وذو شخصيّة رائعة.

ليت پيرس يعرف حقاً مدى توترها!

***

# ٧ ـ القلب العاصف

صاح بيرس بصوت أعلى من صوت المحرك: «ما الأمر يا تيس؟ ألم تركبي هليكوبتر من قبل؟ تبدين متوترة الأعصاب».

أجفلت تيس حين وضع يده على يدها، وجعلتها لمسته تعي الطريقة التي تتمسك فيها بحافة مقعدها.

قالت: «لا، أبداً».

لكن لم يكن الطيران سبب توترها، إنما فكرة مواجهة جوليوس برانسون وجهاً لوجه أخيراً.

سألها بيرس: «ما رأيك بالمنظر؟».

الواضح أنه يحاول إبعاد تفكيرها عن التوتر.

ردت بحماس: «أوه، مذهل!».

وأدركت بخجل، أنها على الرغم من مشاهدتها للمنظر تحت عينيها، لم تكن تستوعب جمال شاطىء كوينزلاند، والامتداد المتسع للمياه الخاطفة للأنفاس. كانت الألوان المختلفة في الماء مذهلة، من الأخضر المتعدد الألوان إلى اللون الأزرق الفاتح، ولمحت سلسلة صخور متصلة محاذية لسطح الماء، وجزر مرجانية، ولطخ قاتمة فوق الماء.

قال بيرس يسليها: «كدنا نصل، أترين ذلك الشكل الأسود أمامنا؟ هناك... هذه هي آكاما، جزيرتنا».

أحست تيس بعضلات جسمها تتوتر مرة أخرى، وتركزت عيناها على الشكل الأسود الذي أخذ يكبر ويكبر ويزداد اخضراراً مع كل ثانية،



واستطاعت رؤية أشجار النخيل فوق الشاطىء الرملي الأبيض.

سألت بلهفة: «لقد أخبرت أبويك عني، أليس كذلك؟ يعرفان اسمي وكل شيء».

ـ اسمك؟ ولماذا؟ هل يعني لهما شيئاً؟

ابتلعت ريقها: «أنا... الأمر فقط، أنني، لا أريد أن أصل من دون إعلامهم مسبقاً... وكأنني طفيلية مجهولة!».

انفرجت شفتاه بابتسامة عريضة: «آه، اطمئني تيس! لقد أخبرت أمي عنك. وكانت مهتمة بما ستكون عليه ردة فعلك أنت.. في مجيئك إلى مصح نقاهة، كما دعته، بسبب أبي وعمتي...؟».

ـ أوه، أجل.

كانت قد نسيت أمر عمته المريضة وأحست بوخزة ذنب بعدم سؤالها عنها قبل الآن: «كيف حال عمتك؟».

ـ المسكينة تزداد ضعفاً، لكنها ليست من النوع الذي يئن أو يتذمر.. إنها أشجع وألطف سيدة. لديها ممرضة، لكن أمي تقوم بما في وسعها لجعل آخر أيامها أو أسابيعها، سعيدة هادئة.

فابتلعت تيس غصة في حلقها: «يبدو أن أمك امرأة عظيمة».

وأحست بالارتباك لفكرة ما يمكن أن تفعله لهذه المرأة الرائعة، لو أن حقيقة مولدها ظهرت... هل يحق لها أن تدخل حياة هؤلاء الناس، وتخاطر في تدمير هدوئهم وسعادتهم؟

لكنني لا أريد أن أفعل هذا، ولن أفعل!

كل ما تريده هو أن تعرف من هو والدها، وإن فعل جوليوس برانسون ما لا يمكن التفكير فيه، واعترف بها ابنة له، ولو فيما بينهما هما الإثنان، فسيكفيها هذا وسيعطيها ذلك الفرصة لشكره لما قدمه لها ولأمها، وستؤكد له أنها مستمرة في الحفاظ على سره، إذا كان هذا ما يريده، ثم ستنسحب منحنية الرأس من حياته، ولو أن هذا سيكلفها الانسحاب من حياة بيرس كذلك. وتسببت هذه الفكرة لها بألم أكثر مما توقعت. لكن هذا أمر حتمي

على أي حال، فهي تعرف سمعة بيرس مع النساء.

كل شيء رهن بالتحدث إلى جوليوس برانسون على انفراد، وإذا لم يتسنَ لها هذا، فعلى الأقل ستتمكن من لقائه أخيراً.. ستسمع صوته، وترى وجهه، وتتمكن من مراقبة تصرفاته، بحثاً عن دلائل الشبه.

حطت الطوافة على مهبط خاص عند أطراف الغابة الاستوائية، وعلى مسافة قريبة من المنزل العائلي. كان منزل برانسون الاستوائي الطراز على موقع مرتفع عن الأرض، كانت شرفاته وأبوابه الزجاجية مزوّدة بدرف خشبية. وهو يطل على مرجات خضراء خصبة، تظللها أشجار النخيل الشامخة. قال لها بيرس إن هناك كوخين منعزلين قرب المنزل، بنيا لاستقبال الضيوف الذين لا يقيمون مع العائلة، أو لأي شخص يريدون إيواءه.

وسألت: «سنقيم مع عائلتك، أليس كذلك؟».

كان الهواء المشبع بالرطوبة، المليء بتغريد الطيور وزقزقتها مشبعاً برائحة أشجار «الميلالوكاس» الشبيهة برائحة السكر المحروق.

رفع بيرس حاجبه: «لا تخافي عزيزتي، سيكون هناك دائماً من سيرافقك، وسنقيم في المنزل مع دي وجوليوس. قال لي الطيار إنه سيمضي الليل في أحد الأكواخ. ولطاقم اليخت «ميشيك» الذي يأتي خلال الأسبوع، خيار استخدام الكوخ الآخر أو البقاء في المركب».

لم يأت أحد لمقابلتهما، وهذا ما اعتقدته تيس، التي اعتبرت ذلك نذير شؤم... هل عرف جوليوس برانسون باسمها فدبر بعد سماعه أنها قادمة، أمر ابتعاد عائلته عن أي ادعاء تطلقه؟ ولكنها سرعان ما انتبهت إلى سخافة افكارها، فكيف يفعل هذا إذا كانت وبيرس سيقيمان في المنزل نهاية الأسبوع؟

حين أمسك بيرس حقيبتها، جعلها ترددها تصيح به: «أستطيع أن أحملها!».

فارتفع حاجباه مجدداً، وابتسم لها: «إنّ لقاءك بعائلتي لا يدعو إلى التوتر يا تيس».



وبدت في عينيه نظرة مرتبكة، وكأن توترها للقاء عائلته يدهشه.

وغار قلبها حين رأت لمعاناً أكثر قسوة في العمق الأسود، فكرت:

ـ أعتقد أنه يظنني متلهفة جداً لأنصب شراكي حوله لذا يراني، أخشى ألاّ أعجب عائلته.. ألاّ يعطوني بركتهم!

لكنها لا تستطيع أن تقول له عن السبب الحقيقي لتوترها.

أخذت نفساً مرتعشاً: «حسناً، بعض الناس لا يحبون الدخلاء على بيوتهم، خاصة حين يكونون في فترة نقاهة، مثل والدك، أو حين يكون هناك مريض يحتضر في المنزل».

فلانت العينان السوداوان: «يعرفون أنك طبيبة يا تيس، ويعرفون أنك لن تفعلي شيئاً يكدر أحداً».

ـ أجل، أعتقد أنني سخيفة!

سارت خلفه صعوداً على السلم الخشبي، وعبر الشرفة المظللة إلى باب تعلوه قنطرة انفتح وهما يصلان إليه وكأن هناك من يراقب اقترابهما. وظهرت امرأة فيليبينية صغيرة الجسم، وجهها الرقيق يبتسم لرؤية بيرس.

فحياها بيرس: «آه ايڤلين! كيف حالك؟».

ووقف جانباً لتمر تيس أمامه.

ـ إيڤلين، هذه ضيفتي، الدكتورة كينللي.

وعندما دخلا، لفتهما على الفور برودة منعشة.

ـ هل غرفة الضيوف جاهزة؟

فصاحت ايڤلين: «بالتأكيد، ألم تكن جاهزة على الدوام؟».

والتقت عينا تيس بعيني بيرس، وارتفع حاجبها هذه المرة. ليس لأنها دهشت لمعرفة أنها ليست الضيفة الأولى التي يأتي بها بيرس إلى الجزيرة. وتركت نظرها يجوب حولها في الردهة الفسيحة، تستوعب الأرض المكسوة بألواح الخشب المصقول، والأواني النحاسية التي تتدفق منها النباتات المورقة، والزنابق الصفراء المطلة من إناء وضع على طاولة رخامية. ولمحت غرفة جلوس مفروشة بذوقٍ رفيع، وبسط أرض مخططة بألوان زرقاء

مختلفة، فبدا لها كل ذلك أنيقا وبسيطاً فاعتقدت أن أفراد أسرة برانسون يحتفظون بالثراء لمنازلهم في سيدني.

والتقطت ايڤلين حقيبة تيس من بين أصابعها، واستدارت إلى پيرس وهي تسير عبر الرواق:

ـ يقول السيد برانسون إنه ينتظرك في غرفة الجلوس لشرب المرطبات.

فخفق قلب تيس بتوتر، وقال پيرس: «أوه، إنه على ما يرام إذن، أليس كذلك؟».

فصاحت ايڤلين: «وهل تظن نفسك قادراً على إبقاء السيد برانسون في سرير المرض؟».

عندها، ضحك پيرس ووجدت تيس نفسها تبتسم بالرغم من التوتر الذي كان يتملكها. بدا واضحاً أن ايڤلين لم تكن تخشى رب عملها الواسع السلطة. فهو ربما ليس مخيفاً كما تصفه وسائل الإعلام.

تساءلت تيس وهي تمرر لسانها على شفتيها كيف ستكون ردة فعلها حين تراه؟ أو على الأصح، كيف ستكون ردة فعله هو؟

ومع أنها كانت تنتظر أن يقرع پيرس الباب منذ خمس دقائق، فقد أجفلت حين جاء.

ـ تيس، هل أنت جاهزة؟

نظرت للمرة الأخيرة إلى صورتها في المرآة الطويلة، ثم استدارت متنهدة تمد يدها إلى الباب.

ـ لقد غيرت ثيابك.

ومرت نظرته السوداء على بلوزتها السوداء بياقتها المتسعة، وعلى تنورتها الطويلة الزرقاء، التي لا تصل إلى كاحليها.

ـ لست مضطرة لذلك. ذلك البنطلون الذي كنت ترتدينه من قبل كان رائعاً.

قفزت عيناها إلى عينيه: «ألا يعجبك ما أرتدي؟».

وأدركت أنها المرة الأولى في حياتها التي تسأل فيها رجلاً أن يعطي رأيه



بما تلبس، فقد كان أندرو يعطيها رأيه دوماً من دون أن تسأله عنه.

فقال: «عزيزتي تيس، ستبدين مذهلة بأي شيء ترتدينه».

وكان من المفترض أن يرفع كلامه هذا من ثقتها بنفسها، لكنه لم يفعل، فهو لم يعلق على بلوزتها أو تنورتها الطويلة، بل ظهرت في عينيه نظرة محترسة، أضافت إلى اضطرابها اضطراباً.

ولم يحاول وضع ذراعها تحت ذراعه، أو يده على مرفقها، أو حتى ملامستها حين رافقها في المنزل. فتساءلت عما إذا كان لا يريد أن يراهما جوليوس في أي وضع حميم. فيقفز إلى فكرة خاطئة، مفادها أن وريثه العابث مهتم حقاً بآخر ضيفة في منزله.

لكن هذا كان أقل ما يقلقها الآن!

توقف پيرس، وتنحى جانباً مشيراً لها أن تسبقه إلى غرفة الجلوس، وأحست بتصلب ساقيها وهي تجبرهما على حملها فوق البساط المخطط السميك، وأحست بپيرس خلفها، دون أن يلمسها.

ولم تلاحظ شيئاً في الغرفة، بل تركزت عيناها على رجل جالس في مقعد وثير أمام نافذة زجاجية. جعل النور الباهر خلفه وجهه في الظل، فلم تظهر إلا هالة فضية من شعره.

حبست تيس أنفاسها حين وقف الرجل، فاحتج پيرس: «جوليوس، لا داعي للوقوف!».

لكن جوليوس برانسون كان الآن واقفاً على قدميه، ولو أن جسمه الضخم كان منحنياً قليلاً، وكأنما لا يستطيع أن يستقيم جيداً بعد الجراحة.

قال بحدة: «لست عاجزاً!».

ولم يقترب منهما، بل انتظر حتى اقتربا منه: «لقد جئت معك بفتاة ما...».

ولم يكن مبتسماً.

تراجع پيرس قليلاً: «أجل، أحب أن أقدم لك تيس كينللي، إنها...».

ـ طيبة، أعرف هذا، لقد أخبرتني دي.

ولم يظهر أي ردة فعل لسماعه اسمها، ومد يده مما اضطر تيس إلى التقدم خطوة لتصافحه. كانت المصافحة صارمة، لكن قصيرة وشعرت تيس أنه لا يرغب في إطالة المصافحة، أو إعطائها ضغطاً له مغزى.

قال، مستخدماً كلمات مهذبة: «أرجو أن تستمتعي بزيارتك».

فنظرت تيس إلى وجهه مرتجفه، وتمكنت من إخراج الكلمات من عمق حنجرتها.

ـ شكراً لك.

وبدا صوته أجشّ لا يشبه صوتها... هذا ليس أبي... لا يمكن أن يكون كذلك... ليس هذا الغريب البارد المتباعد أبي.

لا شيء فيه أو حوله أثار أي إحساس بالتعارف أو التعاطف، فقد تصورت دائماً، أنها ورثت شعرها الأحمر من والدها لأن أمها كانت شقراء الشعر. لكن شعر هذا الرجل أبيض تماماً، وحاجبيه كذلك، على الرغم من شحوب وجهه. ولكنه أمر متوقع بعد جراحته الأخيرة. ولكن لم يبدُ أن بشرته بشرة من يملك شعراً أحمر. كانت عيناه زرقاوين شاحبتين. فلم تكن تشبه البتة اللون الأزرق الحي الذي لعينيها.

قال بيرس من خلفها: «كانت تيس متلهفة للقائك جوليوس».

فأشعرها كلامه بالارتباك وارتسمت بقعتان حارتان على خديها.

نظر جوليوس إليها ببرود: «أوه؟».

وفكرت تيس بتعاسة: ما من أب يمكن أن ينظر إلى ابنته لأول مرة بمثل هاتين العينين الباردتين غير الوديتين، لا سيّما إذا كان ذاك الأب مهتماً بابنته والدليل أنه يدفع تكاليف ثقافتها وتربيتها منذ سنين، ولا يزال يرسل لها المال، مرتين في السنة.

لا شك أن مايكل لورنيس مخطئ. وهذا واضح، ولقد ارتكبت حماقة فادحة باستغلالها بيرس وجرّه إلى هنا.

وأخذت تيس نفساً عميقاً، ثم قررت أن ترمي ورقتها الرابحة.



قالت تعترف: «حسناً، أجل. أعتقد أنك تعرف أمي سيد برانسون!».

فقال من دون رنة استجابة: «أمك؟».

وأحست بيرس يتصلب إلى جانبها، فزاد عمق احمرارها. لا بد أنه يتساءل لماذا لم تقل له هذا، لأنها لم تجرؤ! إذا كان يظنها تسعى فقط إلى صداقته لمقابلة جوليوس برانسون، فهي واثقة أنها ما كانت لتكون هنا الآن، ولكان اكتشف أمرها في الحال.

فقالت بإحكام: «روزيلاند كينللي».

فقطب جوليوس حاجبيه وكأنه يفتش في ذاكرته، ولم ترمش العينان الزرقاوان الشاحبتان!

وساعدته تيس: «كانت تعمل لديك، كمساعدة شخصية، سكرتيرتك الخاصة، أعرف أن هذا كان منذ زمن بعيد قبل أن أولد. لقد عملت عندك لسنوات عدة، ولطالما قالت لي إنك رب عمل رائع».

وكان هذا صحيحاً، فلطالما تحدثت أمها عن نبله، من دون أن توحي مرة أنه كان بينهما أي علاقة حميمة، وتساءلت بقلب خافق... ألأن هذه العلاقة لم تكن موجودة أصلاً؟

كرر جوليوس ببطء: «قبل أن تولدي... سنعود إلى الوراء... أليس كذلك؟ همم... أوه، أجل، تذكرت الآن».

وبدا عليه الاهتمام الجزئي.

ـ كان لدي سكرتيرة منذ سنوات طويلة اسمها. روزيلاند، هذا صحيح... روز ماكينللي ولقد دعتني إلى حفل زفافها. ولا أستطيع تذكر اسم الرجل... مالكولم؟ مايكل؟ كيف حال والدك؟

أحست تيس بدوار يجتاحها... جوليوس برانسون يؤمن أن لورانس هو والدها! ولو كان يؤمن أنه والدها، لعرف أن هذا مستحيل. فكائناً من كان والدها، لكان عرف أن له ابنة. ألم يكن يعيلها بسخاء طوال سنوات؟

شعرت تيس بخيبة أمل لأن حدسها أوصلها إلى نهاية صاعقة محطمة.

وأجفلت لإحساسها بيد بيرس تندس حول خصرها، مواساة لها..

ـ والدة تيس طلقت زوجها بعد أن تخلى عنها عند ولادة تيس، ولم يكن هو والدها. كان يرفض دائماً أن ينجب أولاداً ولهذا تركها.

وأحست تيس بالامتنان لذراع بيرس الداعمة، فلو لم يمسك بها، لكانت ساقاها خذلتاها، ولكنها حتى في حالتها الضعيفة هذه، بقيت عيناها تتفرسان في وجه جوليوس برانسون، تبحثان فيه عن آخر ومضة أمل. ما من أب، يمكن أن يكون من دون إحساس هكذا، وقاسياً هكذا، بحيث يستطيع إخفاء الأمر عنها بعد كل هذا؟

وهبط قلبها كقطعة من حجر حين لم تر أي تغيير في تعبير وجهه، بل مجرد وجه متجهم، وانسحاب بارد. حتى أن السخرية ارتسمت على شفتيه وكأنه يجد اصطحاب وريثه لفتاة لها مثل هذه الخلفية العائلية أمر مثير للاشمئزاز. ففتاة من دون أب معروف، وأم مطلقة تمثل له دون شك عائلة خسيسة مجردة من البركة القانونية.

ثم أدار جوليوس ظهره لها، وتحرك ببطء ليملأ كأسه عصيراً، وسأل من دون أن يلتفت إلى الخلف: «ماذا ستشربان؟».

لم تعد تيس تهتم حقاً، وعرفت أنها لن تتذوق شيئاً. لكنها، ربما تحتاج إلى ما يبلّ ريقها لتخفف من خيبة الأمل التي منيت بها.

قال بيرس: «عصير الكرز مع التونيك أرجوك، وأنت تيس؟ عصير برتقال أم عصير كرز مثلي؟».

ـ سآخذ عصير كرز مثلك، شكراً.

ولم يعد يُذكر شيء عن أمها، ولم يسألها جوليوس شيئاً، بل تجاهلها. وتساءلت عما إذا كان يعامل كل ضيفات بيرس هكذا.

وجلس ببطء في مقعده الوثير، وأخذ يرد على أسئلة بيرس عن صحته. وطرح سؤالاً أو اثنين عن العمل، ثم قال وهو يحدق إلى بيرس، لا إلى تيس:

ـ ستتناولان الغداء على متن «ميستيك». لقد خطط طاقم المركب لنزهة إلى الجزر الخارجية، وهم في انتظاركما الآن.



بدا أن بيرس على وشك مجادلته في هذا لكنه قرر العكس، كما هو واضح.

ـ ألن تأتي أنت ودي معنا؟

قال جوليوس: «هذا صعب! فأنا لا أنوي أن أتناول الطعام على مركب طوال بعد الظهر، أما دي فقالت إنها ستراكما وقت العشاء».

ونظر بيرس حوله: «أنا لم ألقِ التحية عليها بعد، أين هي؟».

ـ تقدم لعمتك الغداء. مسكينة كاميل، لقد مرت بيوم سيء، وستبقى دي معها.

سأل بيرس: «ألا يمكن للممرضة أن تبقى معها؟ سوف ترهق دي نفسها، مع مقعدين ترعاهما».

ـ أنا لست مقعداً!

وغمز بيرس تيس. وكأنه يعرف مسبقاً جواب جوليوس، الذي أكمل مهدداً:

ـ أنا قادر تماماً على العناية بنفسي، أما ممرضة كاميل، فقد أرسلناها إلى وطنها.. لديها عرس عائلي تحضره. وأمك سعيدة تماماً، فقد كانت ممرضة يوماً، ألا تذكر؟ وهي تحب العناية بعمتك.

قال بيرس بسرعة وقد بدا حبه لديليا برانسون جلياً:

ـ إنها تحب العناية بأي شخص يحتاج إلى الرعاية والحنان، إنها تعتني بالناس منذ عرفتها، منذ دخلت وفوبي حياتكما.

ذكره جوليوس بصوت متجهم: «لقد كانت دي أماً ثانية لكما حتى قبل أن تعيشا معنا، ولطالما تركتكما والداكما معنا حين كانا يضطران إلى السفر في عمل خارج البلاد. والحمد لله أنهما فعلا هذا آخر مرة، وإلا لكنتما معهما في الباص المكسيكي».

وللمرة الأولى لمحت تيس لمعان بريق عاطفة ما في العينين الزرقاوين الشاحبتين.

أدرك بيرس أن جوليوس لا يشرك تيس بالحديث، فقال لها شارحاً:

ـ ذهب والداي إلى المكسيك لحضور مؤتمر في إجازة نهاية الأسبوع، فحصلت الحادثة المشؤومة.

وصمت قليلاً ثم أكمل: «انقلب الباص الّذي استقلاّه إلى الوادي وقتل كل ركابه».

فصاحت تيس بدون وعي منها: «أوه، بيرس، ما أفظع هذا!».

وزاد عمق لون عينيها تعاطفاً معه، وشعرت بالأسى لأجله ولأجل أخته فوبي، إلا أن عقلها لم يستطع أن يتخلص من صورة ديليا برانسون، وتخيلتها كالملاك، امرأة معطاء بعمق، مهتمة ومحبة. كان من الممكن أن تنجرح مشاعرها بعمق لو صحّت شكوك تيس عن والدها. ومهما حاولا إخفاء الأمر عنها بحذر، فمن المؤكد أنها ستكتشفه عاجلاً أم أجلاً. فالاثنان كما هو واضح مقربان جداً من بعضهما البعض.

وفجأة، أحست تيس بالسرور والارتياح بالرغم من الصدمة التي منيت بها. فهي لم تكن تود أن تخاطر بجرح إحساس امرأة محبوبة ومحبة مثل ديليا برانسون. ولو أنها لم ترغب في الاعتراف إلاّ أنها كانت تحمل في أعماقها أسباباً أخرى أكثر شخصية للارتياح الذي تشعر به.

استندت تيس على سياج الميستيك ووجهها مستدير للهواء الدافىء المغري، وعيناها تستوعبان صفاء المياه الفيروزية اللون وأحاسيسها تدغدغها الجزر والصخور الغائرة تحت سطح الماء مباشرة، وروابي الجزر الأخرى الغارقة في ضباب أحمر على مسافة مغشاة. ثم رفعت يداً تلوّح لمركب آخر، ورد عليها الشاب والفتاة اللذان كانا على متنه يتمتعان بمناظر وايتسان دايز التي تأسر القلب.

ومالت إلى الخلف تقول مقطوعة الأنفاس: «لم أزر يوماً مكاناً أكثر جمالاً، وهذا بالتأكيد أفضل بكثير من الإجازات في مانلي بيتش».

ـ وهل تقضين هناك عطلاتك عادة؟ في مانلي؟

واستدارت لترى ما إذا كان يسخر منها، فرأت عينيه الماكرتين تتراقصان. لكنهما، كانتا دائماً كذلك، ورفعت ذقنها: «لا، ليس دائماً،



فقد ذهبت إلى الساحل الذهبي أيضاً، وإلى سنغافورة التي أمضيت فيها عطلة رائعة هناك».

ـ أوافقك الرأي، لقد أبحرت إلى هناك عدة مرات.

وكورت شفتيها، وضاقت عيناها، وهي تنظر إلى وجهه البرونزي العميق.

ـ وهذا ما تفضل أن تفعله الآن، أليس كذلك؟ الإبحار، والانزلاق بسرعة فوق مياه وايتسنداير في يختك الصغير...

وأشارت بيدها: «لا ترى مرحاً في هذا التكاسل على متن يخت عملاق. أليس كذلك؟ ليس فيه أي تحدٍّ».

فرفع حاجبه وضحك بنعومة: «أنت مخطئة! فأنا الآن بالضبط حيث أرغب أن أكون معك، وأنت تعطينني كل التحدي الذي أحتاجه».

رفعت حاجبها بدورها، وهي تحاول ألاّ تفكر بالسعادة التي ترفرف في داخلها: «وهل أفعل هذا، حقاً؟».

هل هذا كل ما تمثّله بالنسبة إليه؟ مجرّد تحدٍّ؟

الآن، بما أن شبح جوليوس برانسون لم يعد بينهما، وبما أنه ليس والدها كما هو ظاهر، لم يعد هناك حاجة لإبعاد بيرس وتجرأت فجأة على التساؤل ماذا يمكن أن يكون...

وفجأة ظهر أحد أفراد طاقم السفينة بثيابه الرسمية... شاب أسمر الوجه يدعى جون، ووضع أمامهما غداءً شهياً من ثمار البحر الطازجة والسلطة. أدركت تيس وهما يأكلان أن بيرس كان ينظر إليها بشكل غريب. فسألت مرتبكة بسبب نظرته الغامضة: «هل هناك قطعة خس بين أسناني؟».

ـ لا، ألا يمكن أن أنظر إليك فقط؟ أنا أحب النظر إليك.

فقالت مبتسمة: «لم ترمقني بهذا النوع من النظرات من قبل. فلقد بدوت وكأنك، لست أدري... فضولياً أو حائراً بأمر ما متعلق بي... هيا أطلق ما عندك».

رفع كتفيه: «الأمر هو الطريقة التي بدوت فيها تيس.. لقد بدوت

حزينة، وهذا كل شيء. هل هناك ما يزعجك؟».

فعضت شفتها، لا بد أن پيرس رأى أكثر مما ظنت! فسنوات تدريبه كمحام أعطته بعد نظر إلى أفكار الناس.

ـ كنت أفكر فقط...

وصمتت متنهدة، ثم قالت بعجلة: «پيرس، ما كان يجب أن آتي معك».

وتجنبت عينيه، واستدارت لتنظر فوق المياه اللامعة إلى الصخور المرجانية.

ـ أنا متطفلة، فوالدك ليس بصحة جيدة، وعمتك على أبواب الموت، وأمك مشغولة جداً.

استدارت فجأة لتواجهه: «لماذا جئت بي؟».

ارتجفت عيناه تحت حرارة نظرتها.

ـ ظننتك تريدين المجيء؟

فاحمر وجهها... هل كان هذا واضحاً؟

ـ أنا... لقد أردت فعلاً، ومن لا يرغب في قضاء عطلة أسبوع على جزيرة استوائية؟

وكادت تركل نفسها على طرحها سؤالاً مشحوناً هكذا، فقد كانت تعرف جيداً لماذا جاء بها پيرس إلى هنا، من أجل أغراضه الفاسقة! وبقبولها المجيء معه، أعطته دون إرادة منها الضوء الأخضر.

واشتبكت العينان السوداوان بعينيها.

ـ وهل هذا كل ما في الأمر تيس؟ مجرد إمكانية الاسترخاء في عطلة نهاية الأسبوع؟

وسرت رجفة في جسدها، وحاولت الإفلات من سحر عينيه، فقالت: «أنا، پيرس، أنا... لا أعتقد أن والدك يريدني هنا».

وكان هذا أفضل من الاعتراف بشيء آخر.

ـ الواضح أنني لم أعجبه.. لا يوافق علي.



فأطلق پيرس صوتها ساخراً: «هكذا هو جوليوس، فأبي يعتقد أن كل النساء اللواتي آتي بهن إلى هنا يسعين وراء ثروة برانسون، وليس ورائي».

كل النساء؟ إذن، هي مجرد الأخيرة في لائحة طويلة! آخر ألعاب پيرس برانسون! لكنها عرفت هذا منذ البداية، ولا داعي لأن تشعر... تشعر بماذا؟ الاكتئاب؟ الغيرة؟ هل هذا الألم هو الغيرة؟

اغتصبت ابتسامة: «وأنت تعتقد أنني مختلفة، أليس كذلك؟».

ـ تيس، أنت لا تشبهين الأخريات، أنت...

وصمت ثانية. وبدت عيناه السوداوان تحترقان بكثافة لم ترها من قبل: «اللعنة تيس. هل تظنين أنني سأهتم حتى ولو كنت تسعين وراء آخر سنت أملكه؟ أريدك تيس، أنا مجنون بك!».

حينئذٍ، أحست تيس بشيء يُقتلع من مكانه في داخلها، وينطلق كالسهم إلى أسفل معدتها. فأجفلت لهذا الإحساس، وصدمتها الحدة في صوته، وفي عينيه، وأشاحت بنظرها عنه.

وحين أحست بيده على ركبتها، أجفلت وكأنه ضربها.

ـ هل تجدينني منفراً، تيس؟

وتشابكت عيناها مجدداً بعينيه، وأجبرت نفسها على الابتسام على الرغم من الارتباك الذي شعرت به: «ليس بالضبط... منفر... لا».

ولم تكن تدري هل ارتاحت أم لا حين ظهر جون في تلك اللحظة مع صينية من الفاكهة الاستوائية.

وانتظر پيرس إلى أن ابتعد جون، ثم قال: «تيس، لا زلت حائراً...».

سألت بصوت أجش: «بماذا؟».

كان في صوته تيارٌ خفي وغريب جعلها متململة بشكل غامض. وبدون أن تنظر إليه مدت يدها إلى قطعة «مانغو» وراحت تأكلها.

سألها بهدوء: «لماذا لم تقولي لي إن أمك كانت تعمل لجوليوس؟».

فتسارعت نبضات قلبها وبدأ عقلها يبذل جهداً إضافياً.

ـ أنا... أنا، لم أكن أريد منك أن تظن أنني أستخدم اسم أمي، كي ألقى حظوة في عيني عائلتك!

فأمسك بيدها، وشبك أصابعه في أصابعها: «أوه تيس.. كان يجب أن أعرف هذا... لقد مررت بين أيدي نساء متآمرات كثيرات، منافقات. أنت لست مثلهن تيس».

وابتسم فجأة: «أنت لست من النوع الذي يستغل الناس، ولا تتذللين لأحد».

اشتعلت الحرارة على خديها. فقط لو يعرف! وأحست بخجل مرير، لخداعها واستغلالها إيّاه. ونظرت إلى أصابعه المتشابكة مع أصابعها ثم تمتمت، وهي تستجمع ابتسامة: «ستصبح أصابعك دبقة الآن. فالمانغو مليئة بالعصير».

ـ حسناً، بما أن أصابعي دبقة، فلماذا لا أقدم لك قطعة أناناس؟

ومد يده يأخذ قطعة أناناس ذهبية ناضجة عن الطاولة: «هاك، افتحي فمك».

فتحت شفتيها بطاعة، ومالت نحوه ثم تمتمت «همم» بعد أن ملأت حلاوة الأناناس فمها، لكنها وجدت انزلاق أصابع پيرس بين شفتيها أكثر إثارة.

ففكرت لم لا تستمتع بهذا الإحساس؟ إنها حرة الآن، حرة من الكوابح الشخصية الأخلاقية القانونية، مهما كانت، فجوليوس برانسون لم يعد يقف بينهما الآن!

لكن، هل من الحكمة أن تخالجها مشاعر نحو پيرس برانسون؟ فمن غير المحتمل أن تكون لديه نية في إقامة علاقة دائمة شريفة. فهل يمكن أن تتقبل هذا؟ أن تعيش على هذا الأساس؟ فهي لم تكن يوماً عابثة، ولا دخلت علاقة ليس فيها حب من الجانبين، أو على الأقل إحساس بالالتزام. وپيرس برانسون ليس ممن يلتزم ولقد قال لها هذا.

ـ إذا كنت تريدين علاقة دائمة لها معنى تيس، وخاتماً ذهبياً في



اصبعك...

وبدا متلهفاً، إلى أن طمأنته.

إضافة إلى هذا، فهو ليس من الصنف الذي يستهويها، فهي تحتقر كل زير نساء ثري مدلل، وپيرس برانسون مليونير من الدرجة الأولى وزير نساء، رجل معتاد على الحصول على ما يريد في أي وقت يريد، لكن هذا العالم ليس عالمها، إنهما عالمان مختلفان من خلفيتين عائليتين مختلفتين تماماً، ولهما أصدقاء مختلفين وقيم مختلفة ومثل عليا مختلفة... إنها طبيبة عادية تعمل جاهدة في عملها، لها أذواق بسيطة، وحاجات متواضعة، ونظرة جادة للحياة والالتزامات، فهي ليست من صنفه.

وهو منجذب إليها جسدياً بالتأكيد. لقد أوضح هذا بقوة، لكن هل هذا ما تريد؟ آخر فتاة يقضي معها وقتاً طيباً، وإلى أي فترة يدوم فيها اهتمامه؟ قد يكون هذا كافياً له، لكنها ببساطة ليست كذلك، ويجب أن يكون هناك المزيد.

مع ذلك...

ظهر جون لينظف الطاولة، وبدا متردداً أن يزعجهما: «تستطيعان الآن رؤية الحيد الصخري الخارجي سيد برانسون، وسنصل إليه بعد وقت قصير».

قفزت تيس من مقعدها المريح: «من الأفضل أن أنزل لأغسل يديّ».

وهربت بسرعة.

ناداها پيرس: «سنغوص تحت الماء قرب الحيد الصخري. ومن الأفضل أن تغيري ملابسك وأنت في الأسفل».

كان بعد الظهر أشبه بسحر كامل. ليس بسبب حاجز الحيد الصخري العظيم فقط، والأشكال الرائعة والألوان المرجانية المتلوحة والملتوية مع حركة الماء والسمك الصغير الذي لا يعد ولا يحصى، المتلألىء كالجواهر، اللامع والمتحرك في الماء الصافي الشفاف كالبلور، إنما بسبب وجودها مع پيرس، وغوصهما معاً يدا بيد تحت سطح المياه الهادئة كالزجاج، يتشاركان

المناظر والأحاسيس معاً. وشعرت بالمياه الدافئة تلف جسمها، ثم الإحساس بيديه تساعدانها. . في ما بعد، استكشفا الحيد الصخري سيراً على القدمين منتعلين الأحذية المطاطية لحماية أقدامهما من الصخور والأسماك المخبأة فيها مرتديين قميصين وقبعة لحماية بشرتهما من الشمس الاستوائية. . قاما باكتشافات مشتركة، ليس للصخور المرجانية فحسب، بل لبعضهما بعضاً.

لم تشعر بمثل هذه السعادة ولا مثل هذه البهجة قبل الآن. ولم تشعر يوماً وهي مع أندرو بمثل هذه المشاعر الجياشة. وكان من الرائع أن تعرف أنها تحررت أخيراً، وأنه لم يعد هناك أي شيء تخفيه أو تكبحه ولكن فكرة تورطها عاطفياً بدأت تخيفها. فقد تصاب بالجرح في النهاية.

سوف تفكر في هذا في ما بعد. . . لن تدع شيئاً يفسد عليها يومها، أو نهاية الأسبوع هذه. لا شيء!

* * *



## ٨ ـ أمهلني وقتاً. .

عادا إلى جزيرة «آكاما» مع غياب الشمس في بحر من الذهب الخالص، وحظيا بالوقت الكافي للاغتسال وتغيير ثيابهما قبل العشاء. وعندما راحا يتناولان المرطبات قبل العشاء في غرفة الجلوس، قابلت تيس ديليا برانسون، المرأة التي ربت بيرس وفوبي كولديها.

كانت أول كلمات قالتها دي لها:

ـ عزيزتي، تبدين. . . متألقة.

كانت أقصر من تيس. امرأة وسيمة شقراء الشعر رمادية العينين. كانت ترتدي تنورة وبلوزة بسيطتين وتضع القليل من التبرج. فكرت تيس وهي ترد الابتسامة: هذه ليست زوجة مليونير متأنقة، فهي تبدو طبيعية وودود.

وأحست بتوترها يخف، حتى وهي تتساءل عما إذا كانت دي تلمح إلى أن ابنها هو الذي وضع هذا التألق على وجهها، وهل ستمانع لو فعل؟

وردت مبتسمة: «الإبحار طوال اليوم تحت شمسكم الاستوائية، سيدة برانسون، مع كل الجمال الأخاذ، كافٍ لجعل أي كان يشعر بالتألق. هذه أول زيارة لي إلى وايتسنداي، لديكم مكان جميل جداً هنا».

ـ أجل. . .

وتقدم جوليوس برانسون من خلفهما ليعطي تيس شراباً: «ونحن نحب المكان لأنه منعزل، ولم يفسد جوه شيء».

وكانت لهجته باردة، فبدا وكأنه يقول: «ونريد أن يبقى المكان هكذا،

وستكون هذه زيارتك الأولى والأخيرة».

تدخل بيرس بسرعة: «هل ستنضم العمة كاميل إلينا للعشاء دي؟».

رد جوليوس، قبل أن ترد دي: «لا، لا تستطيع! وهي تفضل ألاّ تخرج من غرفتها بوجود غرباء».

فازداد عمق عبوس بيرس: «ليست تيس غريبة، جوليوس. ألم تقل لها إن تيس صديقة لي وإنها طبيبة، وطبيبة ماهرة؟ لذا فمن المؤكد أنها لن تقول أو تفعل شيئاً يكدر عمتي».

ونظرت تيس إليه بدهشة، فكيف له أن يعرف ما إذا كانت طبيبة ماهرة أم لا. أشعر بذلك مما قالته له عن نفسها فقط؟ أم لأنه كان يحقق بأمرها؟ أم لأنه أحس أنها بحاجة لمن يتكلم لصالحها؟ ورفعت ذقنها من دون وعي.

وانخذ فم جوليوس برانسون التواءً ساخراً: «آه، أجل! ضيفتنا، دي، امرأة عاملة مخلصة لعملها».

وبدا كلامه كإهانة متعمدة.

امرأة عاملة... هل هذه إشارة لعدوانيته نحوها؟ ألأنها خصصت نفسها لعملها؟ زوجته لم تعد امرأة عاملة، لقد تخلت عن عملها حين تزوجت، وأصبحت امرأة مخلصة لعائلتها ولمنازلها المختلفة. فهل يرغب جوليوس أن يرى ابنه مع امرأة تخصص نفسها للبيت، وليس للعمل؟

اختارت ايثلين تلك اللحظة لتعلن أن العشاء جاهز.

وحول وجبة من السمك المطهو بشكل لذيذ سيطر جوليوس برانسون على الحديث، فأخذ يطلق الأسئلة على بيرس عن شركات العائلة المختلفة، عن أمور قانونية تتعلق بالعمل، وعن أملاك العائلة، والناس الذين يعرفونهما، وحاول بيرس جر تيس إلى الحديث بالتطرق إلى موضوع قد يهمها، لكنها كانت معركة خاسرة فقد رمى جوليوس ببساطة سؤالاً آخر من اختياره.

وكان الشيء الوحيد الذي يصبّرها هو ذلك اللمعان الحنون في عيني بيرس كلما نظر إليها. ولو أنها كانت تعرف أن مبعثه الرغبة ليس إلاّ،



وكانت تشعر بالمشاعر ذاتها، مشاعر حارة لا يمكن إنكارها، تشتعل داخلها وترتجف لتصل إلى أطراف أصابعها.

استدار بيرس يسأل دي:

ـ هل تعتقدين أن العمة كاميل ستشعر بالارتياح لو حاولنا رؤيتها بعد العشاء؟ أريد أن ترى تيس.

ـ أنا...

ولم تكمل دي كلامها فقد علا صوت جوليوس هادراً فوق صوتها:

ـ الوقت متأخر، وستكون نائمة، لكنها قالت إنها ترغب أن تراك في الصباح، بعد الفطور. أنت فقط! إنها لا تشعر برغبة في مقابلة أحد. لقد قالت لي هذا. وحتى لو كانت راغبة، فلن أسمح بهذا. إنها ضعيفة جداً ومن السهل أن تتكدر، أنت تعرف مدى هشاشتها.

مرة أخرى أحست تيس بأنها دخيلة غير مرغوب فيها، لكن غمزة بيرس المهدئة، وابتسامة دي المتعاطفة أبقتا معنوياتها مرتفعة.

قال جوليوس: «أسرة كونتغهام ستعود إلى أوستراليا في الأسبوع المقبل».

ودهشت تيس حين التفت إليها لأول مرة ليشرح: «إنهم أصدقاء قدامى لنا.. سكنوا أوروبا لبضع سنوات.. بيرس وابنتهم سيرينا كانا يلعبان معاً».

أشاح نظره عنها ليبتسم بابتهاج لابنه:

ـ يقولون إنها كبرت واصبحت شابة جميلة، تصرفاتها مميزة، لكنها طالما كانت حلوة، وجميلة ويقولون إنها تكاد تموت شوقاً لرؤيتك مجدداً بيرس، بعد كل هذه السنوات.

فكرت تيس وهي تضع على وجهها قناعاً جامداً... إذن هذا هو الأمر.. لديه فتاة أخرى لبيرس، وهذا يفسر عدوانيته. فالأمر ليس شخصياً على أي حال. أنا فقط الفتاة غير المناسبة، وهو لا يريد أن أقف بين بيرس وسيرينا.

وتمتم بيرس:

ـ همم، أنا أذكر سيرينا.

وتساءلت تيس بشيء من الغيرة، لأول مرة، عما إذا كان ذلك اللمعان في عينيه السوداوان موجهاً إلى أبيه أو إلى ذكرى سيرينا.

ـ ومع أنها كانت دائماً أقرب إلى فوبيا مني.

ضحك جوليوس: «كنتم صغاراً في ذلك الوقت، ولكن الأمور مختلفة الآن».

وتسللت عيناه إلى تيس، وكأنه يراها ببساطة الأخيرة بين الكثيرات من مثيلاتها... شيئاً تافهاً... لهوة مؤقتة حتى تصل الفتاة المناسبة... سيرينا.

هل سترى بيرس مجدداً بعد نهاية الأسبوع هذه، وبعد أن عرف أن سيرينا ستعود؟ سيسعد جوليوس بالتأكيد لو لم تره. وإلى أي مدى بيرس مستعد أن يقف إلى جانبها وهو يعرف مشاعر أبيه نحوها، ويعرف أنه يريد أن تبتعد عن حياتهم؟ وبصفته وريث والده الأول كم يمكن أن يكون بيرس متلهفاً ألاّ يخاطر بعطف أبيه؟

أحست بالارتياح لانتهاء الوجبة واقترح بيرس عليها أن يسيرا نحو الشاطىء.

بعد البرودة في الداخل، كانت الحرارة الرطبة في الحديقة تقبض الأنفاس. تنشقا عطوراً استوائية ثقيلة في الهواء وهما يقطعان المرج الفضي إلى الممر بين الأشجار، وكانت نوقاة غريبة وصفير حاد فضولي من بين الأغصان وصيحات متقطعة قصيرة تتردد إلى مسمعها. ولم يكن هناك من أثر للهواء.

دس بيرس ذراعاً حول خصرها: «ليلة رومنسية رائعة.. انظري إلى القمر».

وهي ترفع نظرها إلى القمر المنير، المعلق في سماء مرصعة بالنجوم، أحست به يشدها إليه، وتسارعت نبضاتها، وأخذ قلبها يضرب في صدرها



يكاد يخنقها... وقادهما نور القمر الفضي إلى الشاطىء عبر أشجار مرتفعة وشجيرات صغيرة مليئة التعاريش والنباتات المتدلية. وحين وصلا إلى الفسحة الضيقة من الرمل الأبيض الصافي، كان القمر على علو منخفض في السماء ينشر انعكاساً مبهراً فوق المياه الزرقاء الصافية.

فقال بيرس هامساً، وشفتاه تلامسان خدها: «كل ما نحتاجه الآن هو عازف غيتار».

قالت:

ـ لو قلت لي، لحملت معي الغيتار.

ـ أنت تمزحين... أتعزفين على الغيتار؟

ـ ولمَ الدهشة؟ أنا عازفة ماهرة في الواقع، ولقد ربحته في يانصيب جرى في المستشفى، صدق أو لا تصدق! ولقد علمتني صديقتي القديمة، باميلا، البارعة في كل شيء، أسس العزف وأجده مريحاً للأعصاب بعد تعب النهار. وفي أيام الدراسة، كان يساعدني لأسترخي.

نظر إليها:

ـ وهل تغنين كذلك؟.

ضحكت في وجهه: «طبعاً. أما كيف أغني فهذه مسألة أخرى. لكن لا أحد يسمعني، لذا من يهتم؟».

داعبت أصابعه مؤخرة عنقها، فسرت قشعريرة في كيانها: «أودّ أن أسمعك، وصوتك العميق يخرج من حنجرتك.. أراهن أن غناءك مثير».

ليس مثيراً مثلك... وانشلّ تفكيرها عندما راحت أصابعه تداعب ببطء خصلاتها المتشابكة، فيما كانت يده الأخرى تديرها ببطء لتواجهه، واستطاعت أن تشعر به يضغطها عليه، بعضلات صدره القوية تسحقها، وأحست بشعلة نار تزداد اشتعالاً، لتحرق شرايين جسدها كلّها.

ـ بيرس، أنا...

ـ أعرف.

وأخرج يده من شعرها ليمرر أصابعه على عنقها الرقيقة:

- لا تقاومي تيس، هذا ما كنا نريده معاً، منذ التقينا.

- لكن هذا آخر ما يريده والدك!

ابتسم بيرس ابتسامة حزينة: «نادراً ما نتفق أنا وأبي حين يتعلق الأمر بالنساء في حياتي».

وأحست بطعنة جارحة... ها هي مرة أخرى.

نساء في حياتي... إنها مجرد واحدة... الأخيرة، من عديدات. يبدو أنّ والده لم يوافق على أيّ واحدة منهن.

سمعت نفسها تسأل بصوت مشدود: «وماذا عن سيرينا؟ تبدو مثالية لك، ووالدك يأمل، على ما يبدو، أن ينتهي بكما الأمر معاً، برباط الزواج».

فضحك بنعومة، ومن دون تردد:

- لا فرصة لذلك.

واسترد قلبها نشاطه، ثم ارتعش... هل هي ساذجة إلى هذا الحد؟ بيرس شخص فاسق خبير، سيد سابق في الألعاب المغوية مع النساء، وهو أكثر نعومة وحنكة من أن يتردد في الرد على سؤال عن النساء الأخريات، خاصة وهو متأثر بما بين يديه!

طوى أصابعه تحت ذقنها، ورفعه بلطف، ثم لامس وجهها بخفة، فاستجاب قلبها فوراً، ولكنها جمعت ما تبقى لها من قوة لتدير وجهها عنه.

ومالت إلى رنة صوت مرحة: «تعني أن، ما من مجال أن ينتهي بك الأمر وأنت تسير إلى المذبح؟ أو أن ما من فرصة لتقصده متأبطاً ذراع سيرينا؟».

والتمعت أسنانه البيضاء في ضوء القمر، وقال بصوت ممازح: «همم، لا تقولي لي إنك من الصنف الذي يغار تيس؟ لم أفكر بهذا يوماً».

إنه يتسلى، اللعنة عليه!

وأنكرت: «أنا... أنا لست كذلك!».

حسناً، ليس في العادة فهي لم تغر يوماً، إلى أن دخل بيرس حياتها.



هزتها الفكرة، ورفعت ذقنها، لتقول متكبرة: «أريد فقط أن أعرف أين هو موقعي».

وعرفت أنه سؤال غبي، لا طائل منه. فالرجل سيقول لأي فتاة أي شيء ليوقع بها، لا سيّما بيرس برانسون!

فأخفض نظره وخلت عيناه السوداوان من أي أثر للضحك.

- أنت من أريد تيس، أنت فقط، وإلى الأبد!

الأبد؟ وأحست بخفة في القلب. وأدناها منه ليغدق عليها عناقاً حاراً وأحست بعضلاتها تذوب، وحاولت وحاولت ألاّ تفقد صوابها... كيف يمكن لها أن تصدق أنه يعرف المعنى الحقيقي لكلمة «الأبد؟» لكنه يريدها... على الأقل الآن، وللوقت الحاضر. وهي تريده، أكثر مما أرادت رجلاً يوماً. وصدمها هذا الإدراك كالموج الصارم، وتغلغل عميقاً داخلها، إنها تريده! تريده كله، قلباً وجسداً وروحاً! تريده كفتاة تحارب للحصول على الرجل الذي تريد!

همست:

- وأنا، أشعر بالمثل.

حاجتها إليه كانت تسحب منها الكلمات.

إن خسرته.. إن لم تره مجدداً... وطعنها ألم حاد للفكرة. فهما بالرغم من اختلاف أصليهما وبالرغم من طراز حياتيهما المختلف، لديهما الكثير من الأشياء المشتركة، المرح ذاته والذكاء عينه والعديد من الاهتمامات، والحماسة للحياة، وهذا أكثر، وأكثر بكثير، مما شاركته يوماً مع أندرو.

أجل، بيرس يستحق القتال من أجله. يستحق التمسك به، حتى وهي تعرف سمعته وتعرف أن كل ما يريده هو اللهو... لو استطاعت أن تقنعه أنها تستحق ذلك هي أيضاً. لو أظهرت له لمحة عما يفتقده، وقبل فوات الأوان، قبل أن تعود سيرينا...

- تيس؟

ونظرت بعيداً عنه إلى مكان ما على هذه الجزيرة وارتحلت مع

أفكارها... ثم أعادت نظرها إليه.

- لا نستطيع البقاء هنا...

- لا تخافي جميلتي...

وانخفض صوته إلى الهمس الأجش: «لسنا مضطرين للبقاء هنا...».

أمسك بوجهها بين يديه، وأصابعه تتلمس وجنتيها المتوردتين.

- لقد جئت بك إلى الشاطىء، لأنني أعلم أن ما من شيء يهدىء الأعصاب أفضل من نزهة على شاطىء استوائي تحت ضوء القمر، وعناق تحت النجوم؟ ثم... لقد اعتقدت أن علينا تنقية الجو، والابتعاد عن المنزل، بعد محاولة أبي القاسية للتفريق بيننا. لن أدع هذا يحدث يا تيس لن أدع شيئاً يتدخل بيننا.

ورفعت نظرها إليه بحدة، وقد صدمتها النبرة المتوحشة في صوته. لكنه كان يتكلم عن الآن.. لن يدع شيئاً يتدخل بينهما «الآن»، في نهاية الأسبوع هذه. وماذا سيحدث بعد هذا؟

- يا للسماء تيس! إذا كنت لا تريدينني أن أفترسك الآن وهنا، فلا تنظري إليّ هكذا!!

فضحكت متوترة، وسألت:

- هل هذا أفضل؟

وحاولت دس رنة مزاح، لكنها لم تتمكن من سوى إخراج صوت متكسر أجش.

وسمعت أنفاسه وهي تخرج، وكانت يداه لا زالتا دافئتين على خديها، وخصلاتها تلوح على أصابعه: «لا شيء سوى العناق».

وتسارعت أنفاسها، وأرجع رأسه قليلاً لينظر إليها، ثم عاد يعانقها وأصبحت أنفاسه أكثر تهدُّجاً، وكأنه كان يعذب نفسه بقدر ما كان يعذبها.

وارتجفت، تتساءل كيف سيكون الأمر لو تركت كل هواجسها ترحل، واستسلمت بالكامل لرجل. فهي لطالما كبتت حماستها الطبيعية، مع



اندرو، وهذا ما كان يثير أعصابه، لكنه عاشق صامت يخلو من الخيال، مع نزعة محافظة تكاد تكون متزمتة.

وماذا عن بيرس. ورفعت نظرها إليه، وهي تعي أن نظرته مسمرة وجهها. لو أفلتت الزمام بكامله للشوق الحار الذي تشعر به نحوه، فكيف سيستجيب؟

بدا أن لون عينيه زاد سواداً ثم ضاقتا، فلم تعد ترى إلا لوناً فضياً محترقاً تحت رموش سوداء كثيفة، وقال بصوت أجش، أرسل رجفة في أوصالها: «أريدك وأحبك...».

وجرفها بين ذراعيه، ودون تردد، لفت ذراعيها حول عنقه، وأحست بقلبه يخفق قرب قلبها، وبخفقان يماثل خفقان قلبها.

ولكن شيئاً ما أخذ يطرق على مشاعرها محذراً وشعرت بالخوف.

وعندما حاولت الابتعاد نظر إليها نظرة غريبة وكأنه أحس برفضها:

- لماذا يا حبيبتي تتراجعين..

نظرت إليه وقلبها يخفق: «أعطني فرصة أخرى... أمهلني وقتاً».

قال وقد شاب صوته عنف شديد: «لكنني أمهلتك أكثر مما يلزم فلماذا تحاربينني وتحاربين مشاعرك».

كانت بحاجة أن تتخذ قرارها النهائي.. وهي لا تريد منه إلا مهلة قصيرة.

- أريد التريث قليلاً قبل أن اتخذ قراري النهائي.. أمهلني فقط يوماً واحداً.. فهل هذا كثير...

انتفض مبتعداً عنها متأففاً متذمراً ومع ذلك قال لها:

- سأمهلك يوماً واحداً لا أكثر ولك أن تختاري بعدها.

بعد ليلة لم تذق فيها النوم إلا قليلاً، فتحت تيس عيناً واحدة، لترى الطيور تفتعل ضجيجاً يعلو أحياناً على صوت المطر، لقد طلع الصباح!

أدركت أن أنفاسها ثقيلة وأن قلبها متألم ولكنها ليلاً اتخذت قرارها..

فهي ترفض الرحيل عنه . . وفي المساء ستخبره بقرارها هذا .

نهضت من فراشها ودخلت الحمام مسرعة . ليلة أمس قضتها تفكر وتفكّر حتى وصلت أخيراً إلى قرار . . لن تتركه أبداً يفلت من يدها ، فهي لم تصل إلى ما وصلت إليه في ميدانها الطبي لولا امتلاكها روحاً لا تُغلب وتصميماً على القتال كالنمر للحصول على ما تريد . . وإذا كانت تريده ، فعليها أن تجعله يريدها بالقدر ذاته أو أكثر أو أن تجعله يريدها . . ويحتاج إليها ، ليس لمرة فقط بل للأبد . .

* * *



## ٩ ـ مساحة للذكرى

حين دخلت غرفة الطعام ، كان پيرس هناك يقطع ثمرة فاكهة شهية المظهر ، وايثلين تقف قرب الطاولة تصب الشاي لجوليوس ودي .

أحست بعيون الجميع عليها ، وتقدمت إلى الطاولة برباطة جأش ، آملة أن تكون قد مسحت عنها كل أثر خارجي لليلة الأرقة التي قضتها ، وكانت قد غسلت شعرها الرطب المسترخي على كتفيها .

ثم قالت بسرعة : «صباح الخير» .

وسحبت كرسياً لتجلس .

ـ صباح الخير تيس .

ظهرت رنة تسلية في صوت پيرس وهو يلتقي بنظرتها عبر المائدة ، وبدا في عينيه السوداوين سؤال . .

ابتسمت لها دي :

ـ أرجو أن تكوني قد نمت جيداً تيس .

ـ أجل ، نمت جيداً ، شكراً لك .

ولم تدهش كثيراً حين لم تتلقَ من جوليوس سوى تحية فظة ، قبل أن يستدير متعمداً إلى پيرس .

ـ قالت العمة كاميل إنها مستعدة أن تراك يا بني ، بعد أن تنهي فطورك . إنها أكثر إشراقاً بقليل هذا الصباح ، وسترحب بتبادل حديث معك ، على حد قولها .

نظر پيرس إلى تيس : «إذن ، تستطيع تيس أن . . . » .

صاح جوليوس بصوت أعلى من صوته: «لا! عمتك لا زالت ضعيفة جداً، وسيكون الجهد عليها كثيراً، في لقاء شخص جديد. اذهب لتراها وحدك، واقضِ بعض الوقت معها.. عمتك مولعة بك، وتعرف هذا».

أكدت دي لبيرس: «سأعتني بتيس.. تيس قد تحبين رؤية حديقة الخضار التي أبدعتها كاميل، والتي أعتني بها أنا الآن، طبعاً».

ثم نظرت إلى خارج النافذة: «لقد توقف المطر، والحمد لله. أخشى أنه أمامنا يوم رطب آخر».

وظهرت الشمس من خلال الغيم المتكدس فأرسلت أشعتها الحارة فوق المائدة، فبدأ شعر تيس يلمع بألوان نحاسية نابضة بالحياة.

وصاحت دي بدون قصد منها: «يا له من شعر جميل! لا يرى المرء دائماً مثل هذا اللون الأحمر الغني والطبيعي هذه الأيام، ولن تصدقي...».

وأخفضت صوتها مبتسمة بلهجة متآمرة.

- كان لجوليوس شعر أحمر كذلك قبل أن يميل إلى الرمادي، ثم إلى الأبيض مؤخراً، وكانت عيناه أكثر زرقة في يوم ما، لكنهما شحبتا، وهذا ما سيصيبنا جميعاً ونحن نكبر في السن.

وتنهدت تتحسس شعرها الأشقر.

وجمدت تيس في كرسيها... كان لجوليوس يوماً شعر أحمر؟ وعينان زرقاوان غير شاحبتين؟ والتفتت إلى جوليوس برانسون... كان تعبير وجهه مغلقاً، وكأنه الصوان لكن كان في العينين الضيقتين، القاسيتين شيء ما، تحذير خفيف؟

بالطبع... وابتلعت ريقها... فبسبب وجود زوجته في الغرفة، لن يريد منها أن تقول كلمة!

كان جوليوس يتكلم عن شيء آخر، يناقش مسألة عمل مع بيرس، ولم تفهم ما يقولان. وأنهت فطورها بصمت، وكانت أصابعها ترتجف كثيراً بحيث لم تكن قادرة على الإمساك بشيء.

... إنها مصدومة ومنكمشة في داخلها.



قال بيرس، وهو يدفع كرسيه إلى الوراء: «سأذهب لرؤية العمة كاميل».

فابتسمت بضعف وهو ينظر إلى عينيها. وابتلعت ريقها بصعوبة وهو يختفي عبر الباب المفتوح.

ووقف جوليوس بدوره، يكشر ألماً وهو يستقيم، وسألت دي بسرعة: «هل أنت بخير عزيزي».

فأجابها بصوت أجش: «طبعاً أنا بخير، على المرء أن يتوقع قليلاً من الانزعاج بعد الجراحة».

ثم نظر إلى تيس، يتفرس بها بنظرة قاسية وقال من دون مقدمات: «أرغب أن أراك في مكتبي الخاص، يمكنك المجيء معي الآن».

وعاد لينظر إلى دي: «حولي المخابرات إلى آلة الرد الآلية لو سمحت. لا أريد أن يزعجني أحد».

بدت دي حائرة قليلاً، لكن من الواضح أنها أكثر حكمة من أن تجادله، وهزت رأسها إيجاباً، ونهضت عن الطاولة لتساعد ايثلين.

نادت «دي» تيس، بينما كان جوليوس يقودها إلى خارج الغرفة: «ستجدينني في الحديقة».

أقفل جوليوس باب مكتبه وراءه. ووعت تيس بغموض وجود جدران مليئة بصفوف الكتب، ومقاعد جلدية عميقة، ومنضدة سطحها جلدي تقبع تحت النافذة.

ولم يدعها للجلوس، ولم يلن وجهه، وأحست تيس بمعنوياتها تهبط.

وحين تكلّم، جاءت كلماته صادمة، بحيث لم تستوعبها تيس في البداية.

- أريد منك أن تخرجي من حياة ابني، ولا أريد فضيحة.

كانت لهجته محذرة قاسية كالصوان.

- كطبيبة، لا بد أنك تعرفين ما قد يتسبب هذا لكاميل في حالتها الصحية الهشة، ولا أريد لها، أو لأي شخص من عائلتي، أن يتكدّر!

نظرت تيس إليه، وقلبها يتمزق... لم يأت بها إلى هنا ليعترف أنه هو والدها، ليعترف سراً، ولو بينهما، أنها ابنته... إنه ينبذها، ويريد أن تخرج من حياة ابنه أيضاً.

فارتجفت وانحلّت عقدة لسانها وكانت أسنانها مشدودة بحدة حتى أنها كادت تعجز عن إخراج الكلمات.

ـ أنت تفترض الكثير.. تفترض أنني أسعى وراء ابنك وأن ابنك يريدني في حياته. وسأقول لك أن الأمر عائد له ولي، ألا تعتقد هذا؟

ماذا تفعل؟ هل تحاول إجباره على الاعتراف؟

رد بصوت متحجر لا يلين: «لا، لا أعتقد هذا. ابني مفتون بك، ولا بد أن هذا يرضي غرورك، لكنني آمل ألاّ يعطيك هذا آمالاً محددة، فلن يكتفي إلى أن يحصل عليك، وما إن يحصل على ما يريد، حتى يبدأ البحث عن الانتصار التالي، التحدي التالي، هذه هي طريقته! ولطالما أذهلني كم تبرد حرارة غرامه بسرعة ما إن يحصل على ما يريد من امرأة».

فرفعت تيس ذقنها متحدية، وهي تخفي البؤس الذي تشعر به في داخلها... إنه يقول لها ما تعرفه.. ألم يحذرها بيرس ألاّ تتوقع «علاقة لها معنى؟».

واستدار جوليوس عنها والتقط شيئاً عن المنضدة. ثم قال: «أريد منك أن تأخذي هذا».

ولأول مرة أحست تيس بالشفقة في صوته: «لا أتوقع منك أن تبتعدي خاوية اليدين.. لا شك أن ابني وعدك بشيء ما، لكنها وعود لا ينوي الوفاء بها».

ومد يده.

ـ وحالما تأخذين هذا.. اخرجي من حياتنا، وإلى الأبد، أتفهمين؟ وإن رفضت، فلن تحصلي على شيء، أبداً... هاك.

ودسه في يدها.

ـ خذيه، واذهبي! الطوافة تنتظرك في الخارج، مستعدة لأخذك إلى



المطار.

فنظرت، وقلبها يغور. إنه شيك.. وأصيبت بصدمة لرؤيتها المبلغ.

قالت بصوت متكسر: «تعرض عليّ خمسماية ألف دولار؟».

نظرت إلى الشيك مجدداً، ثم رفعت نظرها إليه بحدة، وهمست متألمة: «تعرض علي نصف مليون دولار، لتتخلص مني؟».

وأحست بقلبها يتفجر في داخلها إلى آلاف الشظايا الصغيرة.

كان كالتمثال، لا يلين ولا يتزحزح وكأنه صخرة من دون إحساس: «لتخرجي من حياة ابني... وأظن أن المبلغ سيسد فراغ صدمة الفراق، ألا توافقينني الرأي؟».

نظرت إلى وجهه، ولم تر أي حراك، وأحست بالدمار يجتاحها، واستجمعت كل قواها لتتكلم، لتحصل على آخر فرصة لانتزاع الحقيقة منه.

ـ لا داعي لشراء سكوتي سيد برانسون، ليس لدي النية أن أقول سرك لأحد، أو أن أطالبك، أو عائلتك بشيء، أو أن أتسبب لك بالمتاعب، أنا أريد فقط أن... أن أعرف الحقيقة، كي أشكرك على ما فعلته لي ولأمي، طوال تلك السنين.

وخيم صمت ثقيل على المكان ثم صاحت بذعر وهي تترك الشيك يقع من يدها لأنها رأت وجهه يشحب: «سيد برانسون! أرجوك... يجب أن تجلس!».

وقادته إلى المقعد، وأراحته فيه: «أنا لم أقصد أن أزعجك».

وامتلأ صوته بالسخرية: «تزعجينني؟».

وأبعد عنه يدها، وبدا تعبير وجهه متوحشاً وهو ينظر إليها.

ـ أنا لست منزعجاً... بل ساخطاً. بماذا تتهمينني بحق الله؟

فسارعت تطمئنه: «أنا... لم أقصد أن أتهمك سيد برانسون، بل أبعد من هذا بكثير! كل ما أردته هو أن... ألتقي بك، أن أعرف من هو... أبي. أنا...».

وتلعثمت، وذوى قلبها وهي ترى الغضب القاتم، والرفض على وجهه...

قال مدمدماً: «أبوك؟».

أجفلت... هل سينكر؟ وضاقت عيناها وهي تنظر إليه عن كثب. وكتفاها منحنيتان.

ـ أنت لم تهتم بأمي قطُّ! أنت لم ترسل لها المال لأنك تهتم بها، أو بي، بل كنت ترسله لشراء سكوتها! وهذا ما فعلته قبل قليل أيضاً!

وقفزت دموع ساخنة إلى عينيها، فمسحتها بغضب: «أنت لم تهتم يوماً لأي واحدة منا! بل أردت فقط أن تنسى أمرنا وتبعدنا عن الأنظار، وعن حياتك!».

وأشارت بإصبع مرتجفة إلى الشيك على الأرض: «وأعتقد أنك تحاول إرضاء ضميرك...».

صاح بها: «كفى! لست أدري من أين أتيت بهذه الفكرة الرهيبة، لكنك مخطئة! أنا لست والدك! وإذا كانت أمك قد قالت لك إنك ابنتي، فقد كانت تكذب! لو كنت قادراً على إنجاب الأولاد لأنجبت من زوجتي لا من سكرتيرتي!».

جف الدمع على خديها، ورددت بصوت أجش: «لو كنت قادراً على إنجاب الأولاد؟».

ـ أنا عقيم، ولماذا برأيك تعتقدين أننا تبنينا بيرس وفوبي.. لأننا لا نستطيع الإنجاب، لأنني أنا، لا أستطيع الإنجاب!

ترنحت تيس مكانها وهي تتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعها.

ـ أنا... اعتقدت أنها زوجتك التي...

ـ حسناً، أنت مخطئة! هل أنا مضطر لدعوتها إلى هنا لإقناعك؟ هل أنا مضطر لأن أريك نتيجة الفحوصات الطبية أو لأن أستدعي طبيباً؟

فهزت رأسها ببؤس مطلق، وتمتمت: «أنا... أنا آسفة... لقد ظننت».



ـ حسناً، ظنك ليس في محله! وإذا كررت أي أفكار كهذه خارج هذه الغرفة، فسأدمرك! ولا تظني أبداً أنني غير قادر على هذا!

فاستجمعت قواها، ورفعت عينيها المتألمتين إلى عينيه: «هل تهددني سيد برانسون؟».

ـ ستعرفين ذلك لو نشرت أكاذيب كهذه!

أكاذيب... يا إلهي! ماذا فعلت؟ وأحنت رأسها تؤكد له ببؤس: «لن أفعل... بالطبع لن أفعل. الأمر فقط أنني لم أكن أعرف هويته. من يمكن أن يتصرف معنا بهذا الكرم...».

أشار جوليوس بيده باستخفاف: «كانت أمك تسافر معي دائماً، وربما التقت بأي شخص آخر، فنحن لم نكن معاً طوال الوقت، وبكل تأكيد، ليس ليلاً أبداً!».

رجع رأسها إلى الوراء بحدة، وظهر الأمل في عينيها:

ـ وهل، تعرف أحداً؟

ـ لا.

قال «لا» حاسمة لا مجال للعدول عنها.

ـ كل ما أعرفه أن الشخص ليس أنا، ويجب أن تعديني ألاّ تنطقي بكلمة مما قلته في هذه الغرفة لأي إنسان... أي إنسان... هل تفهمين؟

همست: «لن أفعل».

تستطيع أن تفهم لماذا لا يريد شائعات من هذا النوع، فحتى ولو كان قادراً على إثبات عدم صحتها، فالشائعات تسري كالنار في الهشيم، بغض النظر عن الحقيقة، ويمكن لأشخاص من عائلته أن يتألموا، هذا فضلاً عما سيطال سمعته أو حتى أعماله.

قالت تعده: «لن أزعج عائلتك مرة أخرى».

والتوى قلبها وهي تفكر ببيرس وكيف سيشرح له جوليوس سبب رحيلها. حين يعرف بيرس أنها استغلته، وأنها سعت إلى صداقته لمجرد الوصول إلى أبيه، سيكون سعيداً ألاّ يراها مجدداً.

قال جوليوس متعباً: «الآن، اذهبي.. أريد أن أستريح! خذي الشيك، واجمعي حاجاتك، واذهبي الآن! واذهبي بهدوء».

وترك رأسه يسقط على صدره: «أريد أن تخرجي من حياتنا!».

ترنحت لحظة أمامه... أجل، من الأفضل أن تغادر بسرعة وهدوء، ودون أن ترى أحداً، دون أن تتسبب بالمزيد من المتاعب، بالمزيد من التكدير، ودون الانتظار إلى أن تنجرح وتذل برفض پيرس لها كذلك.

شدت قبضتيها، ثم قالت من بين أنفاسها: «احتفظ بمالك سيد برانسون».

وصدمها أن يكون هذا المال وسيلته لشرائها، ليخرجها من حياة ابنه. هي غير مناسبة له، إنها ليست واحدة منهم... إنها نكرة، لا تعرف حتى من هو والدها، وهي إلى ذلك تنطلق في رمي الاتهامات جزافاً!

واستدارت بسرعة: «أنا راحلة، ولا داعي للخوف من أن أفتعل فضيحة...».

وهل يظنها عديمة الاحساس، كأن تخلق ضجيجاً وهي تعرف أن هناك امرأة ضعيفة مريضة في المنزل؟ أم يظنّها ستركض إلى پيرس سعياً لدعمه، وتخاطر في تمزيق عائلته؟

ـ سأغادر حتى قبل أن يعرف أحد، وداعاً سيد برانسون.

وخرجت من الغرفة متعثرة، وبعد خمس دقائق كانت تحدق من نافذة الطوافة إلى المنزل الذي تركته وهو يصغر ويصغر تحتها، وأشجار النخيل التي كادت تطير بسبب مراوح الطوافة.. لم يخرج أحد راكضاً من المنزل، ولا ظهر أحد على الأبواب أو النوافذ، و لاتحرك شيء.

ولم ترَ پيرس. قبل أن تغادر، كان لا يزال قرب عمته. أما ديليا فكانت في مكان ما من حديقتها، على الجانب الآخر من المنزل.

وحصل جوليوس برانسون على أمنيته، لقد خرجت من حياتهم.

وأول ما فعلته لدى رجوعها إلى سيدني، فضلاً عن إجهاد نفسها في العمل لتنسى، هو زيارة محامي عائلتها. كان شاباً طموحاً، مغروراً قليلاً



تولى رعاية مصالح أمها بعد وفاة المحامي الأصلي، وقال لها إنه يتصرف تحت السرية التامة وإن السر سيكون أكثر مما تستحقه حياته... وعندما سألته عن هوية ذاك الرجل قال إنه لا يتعامل معه مباشرة، بل يتعامل فقط مع محامي الطرف الآخر، وتساءلت تيس عما إذا كان لا يعرف هو، من هو الطرف الآخر.

وقالت معلقة بتصميم فولاذي: «حسناً، بإمكانك الاتصال بمحامي «الطرف الآخر» لإعلام هذا الرجل كائناً من يكون، أنني لن أقبل ماله بعد الآن. لذا، يمكنه التوقف عن إرساله من الآن. ولو أعطيتني قلماً لسجلت لك هذا كتابة».

بدا الشاب مجفلاً: «هل أنت واثقة؟».

ـ واثقة تماماً.

بدا لها من الواضح أن والدها لا يريد معرفتها، ولا يرغب أن يلتقي بها، ولن يعترف، حتى ولو سراً، أنه والدها. وهو فقط يقوم بما يراه واجبه، لإحساسه بالالتزام، لا بالحب، وهي لا تحتاج إلى هذا، ولا تريده.

ولم تشعر بالندم وهي توقع الوثائق اللازمة، فهي لا تريد المزيد من مال أبيها لراحة باله، ولا تريد أي صلة معه. ولم تعد تهتم بهويته، لكنها لن تفكر بپيرس أيضاً. فهذا الفصل من حياتها أقفل، وانتهى.

ومرت أربعة أسابيع، شعرت تيس أنها أربعة أشهر. واستمرت الحياة، لكن من دون فرح، وبقيت ترى وجه پيرس في فكرها، وفي أحلامها، وفي كل حشد. كما بقيت تفكر بأشياء أرادت أن تقولها له، أو أن تضحك معه، أو تناقشها معه، وأسوأ ما كان يراودها كانت تلك الذكريات، ذكريات عناقه، لكنها كانت تعرف أنه من العبث التفكير فيه، فهو لن يأتي.

تمسكت لأول أيام واسابيع بأمل ظهوره فجأة عند باب دارها... كانت تظن أن مشاعره نحوها عميقة، وأقوى مما تصورت، وأنه سيسامحها على الطريقة التي استغلته بها. وتمسكت بأمل أن يتحدى والده، ويقول له في وجهه إنه يحبها، بالرغم من كل ما فعلت، وإنه ذاهب إليها، أعجبه هذا أم

لم يعجبه.

لكنه لم يأت... لا في الأسبوع الأول، ولا في الثاني ولا في الذي تلاه، وانكبّت أكثر على عملها في محاولة لتهدئة نفسها والعودة إلى حياتها مرة أخرى.

ومساء يوم أحد، عند المغيب، سمعت قرعاً على الباب الأمامي، ورأت مؤخرة رأس رجل بشكل مبهم ضبابي من ثقب الباب، فتسارعت نبضات قلبها لاعتقادها أنه قد جاء أخيراً، وأخذت لحظة لتستجمع نفسها، ولكنها لم تستطع تهدئة خفقان قلبها. ونظرت حولها عاجزة، تتمنى لو كان لديها وقت للتبرج، وتسريح شعرها وارتداء تنورة نظيفة.

وحين سمعت دقة أخرى، تنهدت، وفتحت الباب.

ـ أندرو...

وترنحت بخيبة أمل.

ـ مرحباً.

لم تره منذ أسابيع طويلة، بل لم تكد تفكر فيه.

سألها بصوت غير واثق من نفسه، وعيناه اللوزيتان محترستان: «هل لي أن أدخل؟».

هزت رأسها إيجاباً، وتراجعت إلى الوراء تسأل وهي تلوّح له بالدخول: «قهوة؟».

ـ لا، شكراً.. أزورك فقط لأطمئن على حالك.

وكان في العينين اللتين مرتا على وجهها لمعان رضا.

ـ تبدين مرهقة قليلاً تيس. ألا تنامين جيداً؟

نظرت إليه نظرة ضيقة: «إذا كان لديك شيء تقوله أندرو، فقله، لست في مزاج لألاعبك. ولم أكن يوماً كذلك، إن كنتَ تذكر».

ـ لا.. أتصور أنك لست في مزاج للأشياء التافهة الآن.. سمعت أنك وبيرس برانسون انفصلتما.

ونظر إليها بتعاطف ساخر: «لك مواساتي».



ـ إذا كنت تعتقد أن الطريق الآن خالية لك أندرو...

فكوّر شفتيه، ولامس لون أحمر خديه: «هذا صعب...».

ومد فكه إلى الأمام، وارتفعت شفته بازدراء.

ـ يبدو أنه لم يعد لدينا شيء مشترك، أليس كذلك؟ في الواقع، أنا أخرج مع فتاة أخرى.

وصمت ينظر إليها مترقباً.

لم ترغب تيس في تخييب أمله، فسألته دون اهتمام: «شخص أعرفه؟».

ـ في الواقع إنها... صديقتك باميلا.

الآن أدهشها!

ـ حسناً، أتمنى لكما الأفضل.

وتساءلت عما إذا كان هذا سبب اضطراب باميلا منذ أيام، حين التقت بها. فهل كانت خائفة، كصديقة قديمة أن تكون قد تعدت على شيء كان لتيس؟ فباميلا تعرف بالطبع، أن بيرس بات بعيداً الآن.

وسألته ببطء: «وهل هي التي اقترحت عليك هذه الزيارة؟».

هز أندرو كتفيه: «حسناً، جزئياً».

ـ والجزء الآخر؟

ازداد عمق لون وجنتيه: «أردت رؤيتك على أي حال، أعتقد أن ثمة شيء يجب أن تعرفيه...».

فرفعت تيس حاجبيها، وتمالكت نفسها، ثم قالت: «حسناً؟».

ـ لقد رأينا بيرس، أنا وباميلا، في المسرح منذ ليلتين. كان هناك مع سيرينا كونتنغهام وبدَوا لنا سعيدين جداً، ومرتاحين معاً.

ثم صمت قليلاً ليتركها تتفهم ما سمعت.

ـ لقد قالا إن جوليوس برانسون يؤيد هذا الزواج، فأسرتي برانسون وكونتنغهام على علاقة صداقة قديمة...

وكوّر شفتيه مجدداً: «العالم كله يكاد يدور لأن بيرس توقف عن حماقاته المجنونة أخيراً، ومستعد لأن يستقر».

وأحست تيس بالغرفة تدور من حولها، لكن قوة إرادتها أبقتها واقفة، وبطريقة ما استجمعت قواها وقالت: «وظننت أنه يجب أن أعرف!».

- تيس، إلى أن رأينا بيرس مع سيرينا ليلة أمس، كنا نعتقد أنك وهو، قد... حسناً، أنكما تتمسكان بأمل أن تعودا إلى بعضكما. لكن بعد رؤيته مع سيرينا...».

فأخذت نفساً متهدجاً: «قررنا أن تقولا لي ألاّ أتعلق بأي أمل لا جدوى منه... قل لباميلا، أندرو، إنني لم أعد أحمل المشعل لبيرس، أو لك.. لكما بركتي أنتما الإثنين...».

وابتعدت عن الباب: «وبما أنك لن تتناول القهوة أندرو، وأنا لدي عمل كثير...».

هز رأسه، ورفع كتفيه: «أنا آسف لأنه ابتعد عنك تيس... إنه يستحق العناء، لكنني حذرتك».

شدت على قبضتيها بقوة وأظافرها تنغرز في كفيها: «أجل، لقد حذرتني، وداعاً أندرو».

- وداعاً تيس.

ولامس ذراعها وهو يمر بها: «حظ أفضل في المرة القادمة، هه؟ وحاولي الابتعاد عن زير نساء ثري في المرة القادمة. إنهم يعيشون في عالم آخر، تيس».

وبجهد متفوق، تمكنت أن تمنع نفسها من صفق الباب وراءه، مصممة ألاّ تمنحه هذه المتعة. لكن، حالما رحل، انتزعت وسادة عن الأريكة وبدأت تضربها، مرات ومرات، بكل قوة بقيت في جسمها.

***



## ١٠ - لماذا؟ لماذا؟

يوم السبت التالي، كانت تيس تداعب أوتار غيتارها بطريقة مفككة، تحاول إبهاج نفسها قبل استجماع طاقتها لتصنع لنفسها عجة بيض للعشاء. وعندما رن جرس الباب، وضعت الغيتار من يدها وتنهدت، آملة ألاّ يكون الزائر أندرو وباميلا، لا سيّما أن مزاجها لم يكن ملائماً. لكنها كانت سعيدة لهما معاً، وتتمنى لهما حقاً كل خير. ولقد أعلمت باميلا بذلك عبر الهاتف، لكنها لم تشعر برغبة في زيارة اجتماعية في تلك اللحظات، ولا في الأسبوع المنصرم.

فتحت الباب دون أن تنظر عبر الثقب، فجمدت، وتمسكت يدها بمقبض الباب لتدعم نفسها.

- مرحباً تيس.

كانت مقطوعة النفس، وكل ما استطاعت أن تفعله هو التحديق إليه... لم يبدُ مختلفاً. الحاجب المرتفع نفسه والشفتان المكتزتان نفسهما، وسنابل الشعر الأسود المنسدلة نفسها، والعينان السوداوان الماكرتان نفسهما... لا، كانت عيناه الآن مختلفتين بطريقة ما، وليست متأكدة كيف.

أخيراً تمكنت أن تقول بصوت هامس أجش: «ماذا تفعل هنا؟».

وكان تعبير وجهه جامداً مثل لهجته وهو يرد: «جئت لأطمئن على حالك، ودهشت لوجودك في البيت، أمسية السبت. ظننتك قد خرجت للسهر في المدينة، لتمرحي».

الآن أحست بحقد جارح في صوته.

وفكرت في سيرينا، وفي الأسابيع التي مرت دون أن تسمع كلمة منه، ورفعت ذقنها: «وأنا كذلك مندهشة لرؤيتك، مساء يوم السبت، فهل جئت لوحدك أم أن سيرينا معك؟».

ونظرت خلفه، وكأنها تتوقع أن تراها في سيارته في الخارج.

وطعنتها عيناه السوداوان: «سيرينا؟ حين تخليت عني تيس من دون كلمة، تصورت أنني أصبحت حراً لأن أخرج مع من أريد».

وخفت طعنة الألم. إنه يوحي أنها تخلت عنه دون تفكير به، وردت تهز كتفها، ووجهها مشدود: «بالطبع».

فهو لم يضع وقتاً في إيجاد فتاة أخرى، ولو أنه مهتم بها لجاء وراءها منذ أسابيع، لكنه لم يفعل، فلماذا جاء الآن؟

تفحصت العينان السوداوان وجهها: «تبدين متعبة تيس، وشاحبة. أنت أكثر نحولاً كذلك. تسهرين كثيراً؟».

ضحكت ضحكة قصيرة: «فكر كما تريد».

بل الأصح أكثر، هي ليال دون نوم، تتقلب باكتئاب في فراشها...

ونظرت إليه عن قرب أكثر، وأدركت أن هناك تغييراً دقيقاً في وجهه كذلك. خطوط جديدة حول فمه، يقع باهتة تحت عينيه، والعينان السوداوان المفعمتان عادة بالنشاط باتستان... أجل، عرفت ما الأمر الآن، ومع أنهما ما زالتا رائعتين، إلا أن كل المرح.. كل الحياة.. كل النور، تبدد منهما، فهل يقضي ليال متأخرة في السهر هو كذلك؟ مع سيرينا؟ أم أن السبب هو أنه على الأرجح لم يكن في حياته فتاة تخلت عنه من قبل.

ولم يعجبه هذا!

تغضن جبينه أمام نظرتها المتفحصة، وقال بخشونة: «لم أكن واثقاً حتى، أنك ما زلت تعيشين هنا».

اتسعت عيناها: «وأين كنت تعتقد أنني سأعيش؟».

ارتفعت كتفاه وهبطتا: «اعتقدت أنك ستعيشين في مكان أكثر فخامة،



أو أنك سافرت إلى الخارج لقضاء عطلة طويلة، في الدرجة الأولى، بالطبع».

نظرت إليه شذراً: «عمّ تتحدث بحق الجحيم؟».

نظر إلى السيارة المتوقفة في الموقف: «لا زالت الفورد القديمة.. ظننتك اشتريت موديلاً أكثر أناقة».

ومرت عيناه على جسمها، وعلى بنطلونها الجينز الباهت والقميص الواسع.

- وأين الملابس الجديدة؟ وتسريحة الشعر المكلفة؟ وأين أقراط الماس؟

وأمسك معصمها: «حتى من دون ساعة جديدة!».

ثم ترك يدها ودخل غرفة الجلوس:

- ولا حتى أثاث جديد، ولا لوحات أو تماثيل من الكريستال.

واستدار، وفي خطوة واحدة وقف أمامها، وامتدت يداه تمسكان بكتفيها.

- ما الذي يجري تيس؟ ماذا فعلت بكل المال؟

- كل... ماذا...؟

وشحب وجهها عند استيعابها لما يقول.

أجابت بغضب: «أتعني أن والدك قال لك إنني قبلت المال الذي عرضه علي؟».

فجمد پيرس، ونظر إليها ثم أخذ نفساً عميقاً مرتجفاً.

وقال بخشونة: «اللعين، يا للجحيم! لا، لم يقل هذا بالحرف الواحد، لكنه تركني أعتقد... قال لي إنه عرض عليك ثروة صغيرة، ليعرف ما إذا كنت تسعين وراء المال».

والتوى فمه اشمئزازاً، وتساءلت عما إذا كان هذا الاشمئزاز موجهاً لها أم لوالده.

- ثم قال لي إنك رحلت، وإنكما قررتما معاً أنه من الأفضل أن تغادري بسرعة وهدوء ودون وداع، ومن الطبيعي أن أفترض...

فترنحت تيس، ومنعتها اليدان اللتان أمسكتا بها من الوقوع، وهمست: «ماذا... قال لك غير هذا؟».

ـ لا شيء، لماذا؟ هل هناك المزيد؟

وفتحت شفتيها. لكنها تذكرت، في الوقت المناسب، وعدها لجوليوس ألاّ تنطق بكلمة عن الاتهام الذي واجهته به، ولقد أكد لها: لا أحد.. وبما أن من الواضح أنه لم يقل لبيرس، فهذا يعنيه كذلك، وما إذا كان جوليوس قلقاً حول الكرب الذي سيتسببه هذا ضمن عائلته، أو الشكوك التي قد تتصاعد إلى تفكيرهم، أو أنه قد يتسرب إلى الخارج، فالنتيجة واحدة: عائلته ستعاني جرح المشاعر، وخاصة دي، وسمعته سوف تتلطخ.

هزت رأسها، وقلبها يرتجف: «إذا كنت تظن أنني قبلت مال أبيك، فلماذا جئت لتراني؟ كي تسيء إليّ؟».

أدخل بيرس شفتيه إلى فمه متنفساً، واشتدت قبضة يديه على كتفيها، وشدها إليه.

ـ اللعنة، ولماذا تظنين أنني جئت؟ لأنني لم أستطع البقاء بعيداً عنك! لأنني ما زلت أريدك، ولا يهمني أقبلت ماله اللعين أم لا! كنت على استعداد أن أعرض عليك المزيد، أي شيء تريدينه إذا كان هذا هو السبيل الوحيد لأحصل عليك!

فكتمت أنفاسها، ونظرت إليه غير مصدقة. هل يقول إنه ما زال يريدها؟ وإنه كان يريدها حتى وهو مصدق أنها تسعى وراءه من أجل ماله؟ حتى وهو يصدق أنها قبلت مال والده؟ وأحست بألم حاد لأنه صدق هذه الأمور.

همست بألم: «ظننتك تعرفني أكثر من هذا، وأن رأيك بي أفضل من هذا».

ومرت ضبابة على وجهه. وقال بثقل: «أنت التي وضعت الشكوك في رأسي تيس، كل تلك الأسئلة التي سألتها، عن أبي، عن أعمال العائلة، عن منازلنا، حياتنا، وعما إذا كنت أنوي ترك المحاماة، وكأنك خائفة أن أتخلى



عن ميراثي، ثم حين قال جوليوس إنه عرض عليك كل ذلك المال وإنك رحلت...».

تنهد مرتجفاً: «وماذا تتوقعين أن أعتقد غير هذا؟».

وأحست بصدى تنهيدته في قلبها... أجل، تستطيع رؤية كل شيء الآن. لو كان يشك بأمرها، فلا داعي أن تلوم أحداً سوى نفسها، فاهتمامها الشديد بجوليوس برانسون، كان... مريباً، على الأقل.

اشتدت أصابعه على ذراعيها بقسوة: «إذا لم تقبلي المال يا تيس، فلماذا هربت؟ لماذا لم تأت إليّ؟ هل لأنك ظننت أنني شريكه في فعلته؟ وأنني أردت أن أعرف، بقدر ما أراد أبي، ما إذا كان بالإمكان شراؤك؟».

شهقت: «لا! لم أفكر بهذا قط!».

ـ حسناً إذاً لماذا، تيس؟ لأنك أحسست بالجرح والإهانة، بحيث أردت الابتعاد عنا كلنا؟

فصمتت. من الأفضل أن يصدق هذا من أن يحاول انتزاع الحقيقة منها.

لكنه لم يكتف، وسألها ببطء: «أم أنك خشيت أن أثير عاصفة هوجاء بسببك، وشجاراً قد يكدر عمتي؟ لا شك أن جوليوس حذرك من هذا. ولا بد أنه قال إن موتها سيثقل ضميرك إذا تسببت بالمشاكل؟».

تنهدت مرتجفة، وقالت: «بيرس، وهل يهم كل هذا؟».

صاح: «أجل، يهم. لقد اعتقدت أنك وأنا لدينا مشاعر نتبادلها. ولقد أفصحنا بذلك أم أنك نسيت...».

تراجعت إلى الوراء تتوسل إليه: «لا تكمل بيرس».

وحاولت إبعاد وجهها عنه، عن أنفاسه الدافئة.. كان قريباً بشكل معذب.

وهزها قليلاً: «لماذا لم تأت إليّ في ما بعد تيس، بعد عودتي إلى هنا، ولماذا لم تحاولي مناقشة الأمر معي على الأقل؟».

هزت كتفيها، وأخفضت رموشها لتجنب نظرته: «وما الفائدة؟ وكأننا كنا... بيرس لقد قضينا أوقاتاً طيبة. دعنا نترك الأمور عند هذا الحدّ».

- إذن، هذا ما كان الأمر بالنسبة لك تيس؟ مجرد مرح وأوقات طيبة، وتذوق للحياة المترفة؟ لطالما أردت زيارة جزيرة استوائية، كما قلت. إذن، الآن وقد زرتها، حصلت على المرح، وهذا كل شيء؟

كتمت الإنكار عن شفتيها... من الأفضل تركه يمضي في ظنه هذا.. ومن الغباء أن تظن أنه يريدها لمدى الحياة، أو أن يكون لها أي وهم بمستقبل طويل المدى معه، لقد قال منذ دقيقة إنه ما زال يريدها، يريدها، لم يقل إنه يحبها، فالحب سيكون لشخص آخر مثل سيرينا. شخص مناسب، شخص مولود في بيئة مماثلة ويحظى بموافقة عائلته. امرأة يتزوجها وينجب منها أولاداً، أولاداً بعائلة معروفة وأصول لا شائبة فيها.

أخذت نفساً عميقاً مرتجفاً، وسألت بألم: «ماذا تريد مني بيرس؟ علاقة عابثة أخيرة، قبل أن تستقر مع سيرينا؟ أم تخطط للاستمرار في علاقاتك بعد الزواج بها؟ وأن تشتري أي امرأة تستهويك!».

قطب: «أتزوج سيرينا؟ هل تظنين أن هذا ما أخطط له؟».

ولم تستطع إلا أن تهز رأسها، وغرز أصابعه بوحشية أكبر في ذراعيها.

- تيس لقد عرفت سيرينا منذ سنوات طويلة.. إنها فتاة عظيمة، ومنذ عودتها إلى أوستراليا، خرجت معها مرتين، للعشاء وإلى عرض مسرحي. ربما كنت آمل أن أشعر بشيء نحوها. لكن هذا لم يحصل، أتعرفين السبب؟ لأنني بقيت أرى وجهك، وبقيت أنظر حولي أبحث عنك، أريدك أن تكوني معي.

لف ذراعاً حول خصرها، يثبتها عليه وعيناه السوداوان تلمعان في عينيها.

- أنت التي أريدها في حياتي تيس، بين ذراعي، في حياتي! وليس سيرينا.

أحست بالحياة في جسدها... كان يحثها أن تذوب على عضلات صدره، وأن تشعر به يلتصق بها... أرادت أن تشعر بالأحاسيس التي حلمت بها..



همس في أذنها: «وأنت تريدينني يا تيس. أتظنين أنني لا أعرف، لا أشعر بهذا؟ نحن لبعضنا...».

سألت بصوت يعلو عن خفقان قلبها المجنون: «لبعضنا؟ هذا كلام غريب من رجل حذرني مرة ألاّ أتوقع علاقة لها معنى».

تمتم لاعناً بصوت منخفض: «متى قلت هذا تيس؟ كنت التقيت بك لتوي ولم أكن واثقاً مما كنت تريدين.. لقد بدوت لي يومها مهتمة بعائلة برانسون، وبثراء العائلة أكثر من اهتمامك بي، ويومذاك خفت منك لأنك بدوت لي صائدة ثروات.

وظهرت في عينيه ومضة من المرح القديم، وهمست: «إذا ظننت أنني صائدة ثروات، فلماذا استمريت في رؤيتي؟».

- آه، سؤال جيد! لماذا يقوم الرجل بالأشياء التي يقوم بها؟ لماذا يجعل نفسه غبياً فيما يخص النساء؟ أعتقد أنني لست الأول...

تمتمت: «أنت لست غبياً بيرس برانسون، فمحام بارع مثلك لا يجعل من نفسه غبياً».

واشتعلت نار صفراء في عينيه السوداوين.

- أي رجل، يمكن أن يجعل من نفسه غبياً من أجل امرأة، إذا كانت الامرأة تعني له الكثير، يا للجحيم تيس! ليتك فقط تعرفين!

وشدها إليه، ودفن وجهه في عنقها: «طوال الوقت الذي كنت ألاحقك به لم أكن واثقاً، مما إذا كنت أريد إخراجك من نفسي، أم أحاول أن أتخلص من الشكوك التي أشعر بها حول تورطي أكثر معك، فلم أكن واثقاً أنك تريدينني لشخصي فقط! حين قال لي أبي إنك رحلت، وتركني أصدق أنك قبلت ماله...

قالت بنعومة: «أثبت هذا ما كنت تشك به، وجعلك تستمر في إساءة الظن بي».

رفع رأسه ونظر إلى عمق عينيها: «لكنني جئت إليك، أليس كذلك؟ حتى وأنا أسيء الظن بك؟ لا بد أنني كنت أعرف من صميم قلبي أن هذا

غير صحيح، لكن حتى ولو كان صحيحاً، لما همني.. أريدك تيس.. أحبك تيس، وسأحبك دائماً».

وهزتها رجفة عدم تصديق وتساؤل، وأحست بدفاعاتها تتهاوى، وتأوهت: «أوه بيرس، كم كنت يائسة».

وترقرقت الدموع في عينيها: «لم تمر عليّ لحظة لم أشتق فيها إليك».

ـ ليس أكثر مني.

واندست أصابعه في شعرها، تتمسك بخصلاتها: «مقدر لنا أن نكون معاً تيس، نحن ننتمي لبعضنا».

ضمها بين ذراعيه، فابتعدت الأسابيع التي انفصلا فيها عن بعضهما البعض، بعيداً، وكأنها لم تكن.

ـ لم أسألك كيف حال عمتك.

قبل بيرس جبينها: «العمة كاميل؟ لا تزال صامدة، إنها مذهلة. لكن المسألة مسألة وقت فقط، لقد ودعتها خشية ألا أكون هناك حين تحين ساعتها».

ـ و... والدك، هل استعاد عافيته؟

ـ عاد إلى العمل، هنا في سيدني، خلال الأسبوع على أي حال، وهو يعود إلى الجزيرة كل نهاية أسبوع، أمي باقية هناك طوال الوقت، لتلازم العمة كاميل.

ـ أمك شخصية ممتازة بيرس.

ـ أوافقك الرأي، وهي متعاطفة معك.

عضت شفتها وبدا الألم في عينيها: «لقد غادرت الجزيرة دون أن أودعها».

ـ ستفهم، حين تعرف ماذا فعل جوليوس بك. هذا إذا لم تكن تعرف مسبقاً، ولا بد أنها أسمعته ما يليق به...

بدا أنها ستقول شيئاً، فسارع يسكتها: «صه، دعينا لا نتكلم».

ودفن وجهه في شعرها، واشتعلت حرارة فورية بينهما.



حذرته تيس بهدوء: «لن يكون والدك سعيداً بهذا، فهو لا يريد أن تكون على علاقة بي».

لامس وجهها: «حين يعرفك أبي كما أعرفك، سيحبك! لا بد أنه الآن يتلوى خجلاً مما فعله بك، وأنا واثق أن هذا أثر به، بعد أن رميت له عرضه المقرف في وجهه، وكم أحب أن...».

ضغطت اصبعها على شفتيه: «لا بيرس! أرجوك، دع هذا».

هي التي قدمت له الإهانة الكبرى، فقد اتهمته بأنه والدها، وأكملت: «أنا واثقة أنه كان يحاول... حمايتك، وحماية عائلته».

ـ حسناً يستحق عذاب الضمير، لأنه ظن أنك تسعين وراء المال.

تنهدت: «حين يعرف أننا عدنا لبعضنا، سيتأكد من هذا. سيقول إنني كنت أسعى إلى المزيد، إلى كل ما أستطيع أخذه منك».

ضحك بيرس: «لو كنت هكذا، لما أشرت إليه... وقبل أن تضعي خاتمي في إصبعك».

طارت عيناها إلى عينيه: «خا... خاتم؟».

خلص نفسه من ذراعيها، ثم ركع عند قدميها: «حبيبتي تيس، أرجو ألاّ تتصوري أنني لا أنوي الارتباط بك رسمياً؟ أحبك، وأنوي الزواج بك وأنا أطلب منك هذا، فهل تتزوجينني؟».

ولو لم تكن جالسة، لوقعت تيس من وقع الصدمة على الكنبة.

ونظرت إلى وجهه تفتش فيه: «بيرس، هل تعرف ما تقول؟ أنا لم أكن أعتقد أنك قد تلتزم، هذا عدا...».

قاطعها: «لست هكذا، إلى أن التقيتك. لقد غيرت كل شيء بي، الآن أعرف ماذا يعني حب امرأة، أنت الوحيدة، وستكونين الوحيدة دائماً، فلماذا الانتظار إذن؟ أريد إعلان خطوبتنا وليعرف العالم بها».

هزت رأسها مذهولة، وهمست: «أنا... بيرس، أليس الوقت مبكراً؟ الزواج خطوة هائلة، إنه يعني، إلى مدى الحياة... أو هكذا يعني، في عرفي».

- وفي عرفي أيضاً، ولهذا لم أتقدم بطلب يد أحد من قبل، ولا أنوي أن أفعل هذا مرة أخرى. بالنسبة إليّ، هذا كل شيء، وأعرف ما أشعر به تيس، ولست بحاجة للانتظار.

وتفحصتها العينان السوداوان، الحنونتان الآن أكثر من أن تكونا ماكرتين.

- لقد أملت... أن يكون هذا الشيء ذاته لك.

ابتلعت ريقها: «هذا يحدث بسرعة».

فمنذ يوم واحد، أحسّت باليأس لفكرة عدم رؤيته مجدداً؟».

- وأنت وأنا، بيرس، هناك فروقات كبيرة، بين نمطي حياتنا...

فقال ساخراً: «لم ألاحظ أي فروقات.. كلانا يحب الأشياء ذاتها، كما لاحظت، وإذا كان ثراء عائلة برانسون يجعلك مترددة، كما تصرين...».

- ألا تسمّي هذا فارقاً؟ أنت معتاد عليه أما أنا فلا، وسيحرجني أن يكون لي كل ذلك الثراء، وأن يتزلف لي الناس بسببه، وأن أرى من ليس لديه مال... ومع ذلك يحتاجون إليه.

احمر وجهها: «سأشعر بعدم الارتياح في عالمك».

- توقفي عن الكلام عن عالمي، وكأننا نعيش على كوكبين مختلفين. الآن وقد عرفت أن مالي لا يهمك، فلن تمانعي لو تخليت عنه كله؟

حدقت به مشدوهة: «تتخلى عنه؟ كيف؟ وماذا تعني؟».

ضحك بنعومة: «لو تستطيعين رؤية وجهك الآن تيس! الكثير من النساء قد يبدو عليهن الرعب، وخيبة الأمل. وسيتهمنني بأنني مجنون، لكن عينيك مشتعلتان، بما يبدو أملاً!».

ابتسمت بقلق: «هل تقول... إنك تنوي التفرّغ للمحاماة فقط بيرس، وألاّ تتولى أعمال أبيك؟».

- وهل تمانعين؟

- لا،! بالطبع لا! يسعدني أنك فكرت بهذا.

ابتسم بخجل: «في الواقع لم أكن أفكر به.. لكنني تركتك تعتقدين



هذا، لأنني في ذلك الوقت، حبيبتي، لم أكن أرغب أن أخاطر بفقدانك. وفكرت أنني قد أخسرك لو قلت لك مباشرة إنني لا أنوي السيطرة على امبراطورية أبي حين يأتي الوقت».

- أوه بيرس...

بطريقة ما كان مخادعاً مثلها تماماً! ولو لم تكن مصممة على مقابلة جوليوس برانسون لتركت هواجسها تتغلب عليها، وأدارت له ظهرها في الحال؟ وتذكرت جوليوس فقالت بسرعة: «وما هو شعور والدك نحو هذا القرار؟».

- إنه لا يصدق أنني أعنيه، ولا يزال يأمل أن أغير رأيي، ولهذا يصرّ على أن أقضي بعضاً من وقتي في العمل، لأتعرف على المؤسسات المختلفة. لا أمانع في هذا، لأنني سأكون مستعداً للعمل القانوني لصالح الشركة، وسأكون سعيداً للبقاء في منصب إداري، الإداري التنفيذي.

- إذن من سيدير الشركات؟

- فوبي وتوم، لديهما مراكز عليا في الشركة، وفوبي تقوم بعمل رائع، وهي مناسبة جداً للمنصب الإداري، لكن جوليوس لا يستطيع رؤية هذا، لأنه معتاد على أن تكون الزوجة في المنزل، وأن تبقى في مكان خلفي، لكن دي تنتعش في مثل هذه الحياة، أما فوبي فهي مختلفة، لقد ولدت امرأة أعمال، والأعمال المنزلية تجعلها باردة، وهي وتوم لا يريدان أولاداً.

أمسك يدها يضغطها على خده.

- لكنك تلهينني بهذا الكلام، وها أنا ذا راكع على ركبتي، تيس أنا أعني ما أقول. أريد الزواج بك، أحبك، وأنت تحبينني.

وتراقصت الشعلة مجدداً في عينيه: «لقد سبق أن قلت لي هذا، وليس مرة واحدة، ولا تقولي لي إنك لم تفهمي ما كنت تقولينه؟».

فابتسمت بحنان، واعترفت بخجل: «أوه، بل كنت أفهمه، وعنيته... يقال إنك حين تحب شخصاً حباً حقيقياً، تعرف. وأنا مع أندرو...».

وصمتت، لكن عينيه شجعتاها: «لم أستطع أن ألتزم معه لأنني لم أكن واثقة، وكلما طال الوقت ونحن معاً، كلما خفت ثقتي. أحببته لكن، ربما ظننت هذا، أما معك بيرس فأنا أعرف».

وأرسل الحب الذي اشتعل في عينيه سعادة حقيقية في أوصالها.

غطت ابتسامة شفتيه: «حسناً إذن، الحب والزواج يسيران معاً، هذا ما آمنت به دائماً، فإذا كنت تحبينني فقولي نعم.. أخرجيني من بؤسي، ثم دعينا نعلن خطوبتنا وندع الجميع يعرف بها».

التمعت عيناها، ثم خبتا: «أتعني... تدع والدك يعرف... بيرس... لست واثقة».

ـ لست واثقة مني؟

هزت رأسها: «لا!».

ـ إذن ما الأمر؟ أنت لست مترددة لأنك تظنين أن والدي، لن يوافق؟ مم أنت خائفة تيس؟ أن يقول إنك تمسكت بالعرض؟ أن يتهمك باصطيادي في لحظة ضعف، بعد كل هذه الأسابيع من الفراق؟

وانخفضت رموشها.. إنه يعرفها جيداً!

ـ أريد أن أعرف أنني أحوز على بركة والديك بيرس.. دعنا ننتظر لمدة أسبوع، على الأقل، قبل أن نتكلم عن الزواج.

قال فجأة بإغتها: «أنت على حق، لأنك تحتاجين إلى المزيد من خطب الود، وقت اهتمام أكبر، والمزيد من الوقت لنا معاً، قبل أن يعرف الجميع مشاعري نحوك».

فارتجفت مبتسمة: «يبدو هذا رائعاً، لكنني عنيت أننا بحاجة إلى المزيد من الوقت لنعرف بعضنا».

ومرر عينيه بحب عليها وكأنه يعرف عنها ما يكفيه.

واحمر وجهها، وأطرقت رأسها، فما تريده هو أن تعطيه فرصة للتنفس، المزيد من الوقت للتفكير بما سيفعل، وعليه أن يقرّر ما إذا كان مستعداً لتحدي والده. أما هي فتعرف أنها متأكدة، ولم تكن يوماً متأكدة من



أي شيء في حياتها هكذا.

لامس بيد حنونة خدها: «لهذا وجدت فترة الخطوبة تيس، كي يعرف الملتزمان بعضهما البعض بشكل أفضل، لكن لا بأس سأعطيك أسبوعاً قبل أن أطرح السؤال مرة أخرى، وفي المرة القادمة أتوقع أن تقولي نعم».

***

# ١١ ـ . . . إلى الأبد

بعد أسبوع من ذلك اليوم، طلب بيرس يدها مرة أخرى، وهذه المرة قبلت تيس من دون تردد. وكان بيرس قد أظهر لها بمئات الطرق أنه يعني كل كلمة قالها يوم الأحد المنصرم.

والتقيا عند ظهر اليوم التالي في محل جواهر فخم ليختارا الخاتم.

والتقط بيرس خاتم «سوليتير» مذهل من الماس: «ما رأيك بهذا؟».

هزت تيس رأسها: «كبير جداً، وقد أصدمه بكل شيء! أريد خاتماً أستطيع ارتداءه طوال الوقت، وأشعر بالراحة معه».

ـ ما رأيك بالياقوت الأزرق ليماثل لون عينيك؟

مدت يداً شاحبة: «همم، أحب الزفير الأزرق، لونه سيعطي بشرتي قليلاً من اللون».

ـ شعرك وعيناك تيس، وهاتان الشفتان الرائعتان تعطيك اللون الذي تحتاجين إليه.

ومرر يده على شعرها النحاسي.

واحمر وجهها، وتراقص قلبها بالسعادة فقد مسحت الأيام القليلة الماضية، الألم والبؤس اللذان شعرت بهما، وكان كل يوم يمضيانه معاً يأتي لهما باكتشافات جديدة، ويكشف أشياء جديدة عنه لتحبها وتعجب بها.

وأمسكت خاتماً: «مثل هذا».

حجر ياقوتي مربع رائع لامع بلونه الأزرق كعينيها تماماً، مطوق بقطع ماس صغيرة.



قال موافقاً: «نعم إنه جميل ينم عن ذوق رفيع، وله خاتم زواج يتناسب معه، وله الذهب المجدول عينه».

ـ دعيني أضعه في يدك.

وشعرت وهو يدسه في إصبعها، بالسعادة، وقفز تفكيرها إلى يوم زفافهما، حين يدس الخاتم المجدول الآخر في إصبعها. لكنها شعرت فجأة بخوف مفاجيء.

ـ لن أرغب في الزواج من دون بركة أبويك.

صرف النظر عن قلقها: «ما من مشكلة. لقد كلمته مرة أخرى هذا الصباح، إنه في «آكاما» وقد تقبل الأمر، ولن يقف في طريقنا تيس».

ـ تقبل الأمر، لكنه ليس سعيداً لأجلنا.

وأحست بوخزة الندم، فهو سيكون والد زوجها، أقرب ما يكون للأب الذي لم تحظَ به يوماً. ولن يكون سعيداً أن تكون هي «كنته» أو ابنة له، وقد يأمل أن ينفصلا قبل الزفاف، وسيفعل ما بوسعه ليتأكد من انفصالهما، كي تستطيع سيرينا، أن تلتقط بيرس في ردة فعله.

ـ لو لم يكن سعيداً، لما عرض علينا استخدام ميستيك لحفلة الخطوبة، حبي.

استرخت عيناها.

ـ وهل فعل هذا؟ . . . لكنه لن يحضر؟.

كانت تعرف أن بيرس واجه جوليوس بخصوص محاولته السيئة لشرائها، ولإعطائه الانطباع أنها أخذت المال وهربت. وحسب قول بيرس لقد دافع جوليوس عن موقفه دون خجل أو اعتذار، معلناً أن هذا كان نوعاً من الاختبار لبيرس بقدر ما كان لتيس، ليرى كم هما جادان في مسألة حبهما.

وأكد بيرس لها: «بالطبع سيحضر، ودي كذلك».

ـ حقاً؟

رفرفت عيناها، ثم عضت شفتها: «وهل أمك على استعداد لترك

عمتك، في وقت كهذا؟ وعمتك قريبة جداً من...».

- اسمعي، عمتي كاميل يمكن أن تصمد أياماً بعد، وأسابيع ربما، وهي تفهم أن على الحياة أن تتابع مسيرها وسيكون معها ممرضتها الدائمة، وستعود أمي في اليوم التالي.

لكن تيس لم تكن واثقة.

- لكن إن حدث شيء في غياب أمك، فلن تسامح نفسها...

- ولن تسامحنا كذلك، ولا حتى جوليوس.

- ألا يمكن أن نتخلى عن حفلة الخطوبة يا پيرس ونقيم حفلة عائلية صغيرة بدلاً منها؟ يمكن أن نذهب إلى هناك...

- لا بل أريد أن يكون كل أصدقائنا معنا. أريد أن أظهرك لهم وللعالم، ولا أريد أن أخبئك وكأنك...

- وكأن عائلتك تخجل أن تظهرني للناس؟

- هذا ليس ما...

وصمت نافد الصبر: «لأجل السماء تيس، لماذا يخجلون بك؟ لديك كل ما قد يرغبونه في ابنة لهم.. أنت جميلة ذكية، وطبيبة رائعة.. أنت شخصية جميلة تهتم بالناس، مثل أمي».

وفكرت تيس بجوليوس الذي جعلها تفكر أنها ليست واحدة منهم.

- لقد تربينا في عالمين مختلفين.

نظر إليها مقطباً: «عائلتي ليست هكذا تيس».

وأخفض صوته مع أن البائع كان بعيداً عن السمع، يقف خلف منصة بيع بعيدة قليلاً حسب طلب پيرس، ليترك لهما مجال الاختيار.

- لا يهمهم أي نوع من الأشخاص أنت، ولا إذا كان لديك حساب مصرفي ضخم، أو خلفية عائلية متألقة.

قالت دون تفكير: «أو أب».

ازدادت حدة نظرته: «هل هذا ما يقلقك تيس!».

أخفض رأسه وقبل خدها بسرعة: «قد يكون والدي متسلطاً لا يحتمل،



وأحياناً أكاد أخنقه، لكنه لن يحمل شيئاً كهذا ضدك».

لم تصدقه، لكن كان من المريح أن تسمعه يقول هذا.

- على أي حال، لا أريد...

لامس شفتيها باصبعه: «أقول لك ماذا... سنتفق، سنكتب لائحة بأصدقاء نريدهم في حفلة الخطوبة، وسندعوهم إلى «آكاما» لقضاء عطلة الأسبوع.

حدقت به مشدوهة: «أوه پيرس، لا يمكنك فعل هذا! تدعوهم جميعاً إلى الجزيرة! أين سيقيمون؟ لا يمكن أن تتوقع...».

- إذا اضطررنا فسنجعلهم يقيمون في جزيرة هاملتون في المنتجع.. إنها لا تبعد كثيراً عن آكاما، سنأتي بهم إلى مطار هاملتون وننقلهم إلى آكاما على متن ميستيك، حيث ينضم إلينا جوليوس ودي، وسيكونون على مسافة دقائق من المنزل فيما لو حدث سوء. هل يبدو لك هذا جيداً؟

- پيرس، هذا رائع، إذا وافق والداك، لكن الأمر سيكلف ثروة...

- ولم الثروة إذن؟ لنستفد من ملايين برانسون طالما لدي فرصة الوصول إليها؟

- أظن...

وعضت شفتها: «أظن أن والدك حين يعرف أنك جاد في مسألة عدم تسلم أعماله، سيحرمك منها؟».

نظرت إلى وجهه: «وهل ستمانع؟ أنت معتاد جداً، على الحصول على ما تريد، وأن تفعل ما تشاء، والمجيء بطائرة مليئة بالأصدقاء إلى وابتسندايز لنهاية الأسبوع».

رفع پيرس حاجبه مؤنباً: «أرى أن هناك الكثير لتعرفيه عني تيس. أستطيع أن أفعل أو لا أفعل، حاجاتي أبسط من هذا بكثير. أعطيني قارباً أبحر به، وسقفاً فوق رأسي، وقضية أعتاش منها، وأنت يا جميلتي تيس، وسيكون لي كل ما أردته يوماً، أما الباقي فيمكنني الاستغناء عنه، ولا يعني لي شيئاً، فأنا لم أدلل نفسي يوماً كما تعتقدين أنت والكثير من الناس،

ولطالما كنت أنكب على العمل.

فمازحته، تفكر بنسائه: «وتلعب جاهداً».

- في أوقات فراغي، بالتأكيد، لقد أمضيت أوقاتاً طيبة. حين يكون المرء شاباً أعزب، ولديه الوسيلة لينغمس، حسناً، لِمَ لا؟ لكن كل هذا لم يكن مرضياً. لم أكن مكتملاً يا تيس، ولم أكتمل إلا بعد أن التقيت بك.

واكتأبت عيناه: «لقد انتهت أيام عبثي المجنون، ولدي أولويات أخرى الآن.. مسؤوليات أخرى أتطلع إليها، وإن أبعدني جوليوس أم لا، فسنكون على ما يرام تيس.. كل منا له مهنته الناجحة».

- أنا لست قلقة على نفسي، بل قلقة عليك! لكن ربما، لا داعي لأن أقلق.

والتمع حبها له في عمق عينيها، وزاد من حيوية اللون الأزرق.

أمسك يدها ورفعها، ولمع الزفير الأزرق والماس تحت الأنوار الساطعة.

فسأل: «هل أنت سعيدة بهذا إذن؟».

حين هزت رأسها موافقة، ضغط يدها على شفتيه، ثم استدار ليومىء إلى البائع المبتسم.

ذلك المساء، اتصلا بجوليوس ودي اللذين كانا في الجزيرة مع العمة كاميل، وبدت دي، التي ردت على الهاتف، مغتبطة للخبر، وأصرت أن تكلم تيس، لتقول لها كم هي سعيدة لانضمامها إلى العائلة، لكن حين أخذ جوليوس الخط، لم يعطها أكثر من اعتراف أجش، اتبعه بتعليق لابنه:

- أعتقد أنك تستعجل الأمور، لكنني أستطيع القول إنك تعرف ما تفعله، ويجب أن تكون هكذا الآن.

قال بيرس ببرود: «أوه، أعرف تماماً ما أفعل، ولم أكن يوماً واثقاً من شيء أكثر من هذا في حياتي. نحن نخطط لإقامة حفلة خطوبة في نهاية الأسبوع المقبل جوليوس، ونحن ندرك أنه وقت سيء لأمي التي لا ترغب أن تترك الجزيرة، ولهذا اقترحت تيس، أن نأتي إليكما...

لكن حين أكمل شرح فكرته عن الضيوف، قاطعه جوليوس: «هل



أنت مجنون؟ وهل تدرك أن عمتك تموت؟ وقد تموت في أي لحظة، إنها بحاجة إلى الهدوء، وليس للإثارة!».

بدا بيرس أقل برود، ووجهه مشدود: «لكن أصدقاءنا لن يقتربوا من المنزل أو من عمتي بل سيكونون على متن ميستيك، وبعد الحفلة سنأخذهم إلى جزيرة هاملتون، فقط أنا وتيس...».

فصاح جوليوس هادراً: «لا! لن أقبل بهذا! إنها فكرة سخيفة، ومضيعة للمال، وليس من عادتك أن تبالغ يا بيرس!».

أحست تيس التي كانت تستمع إلى كل كلمة تقال عبر الهاتف، بقلبها يغور. فالواضح أن جوليوس يلومها على المبالغة، فهي التي اقترحت الاحتفال بخطوبتهما في الجزيرة. لقد افترض كذلك أنها فكرتها فكرة المجيء بالضيوف معهما، ولا بد أنه يعتقد أنها لا تضيع وقتاً في تبذير ملايين برانسون.

وصاح جوليوس: «لست أدري لماذا لا تستطيع الانتظار؟ إذا كان لديك أي اعتبار لعمتك، فأخّر خطوبتك إلى أن ترحل، ولن يكون هذا زمناً طويلاً، المسكينة!».

أمسك بيرس غضبه، وقال: «لا، أدرك هذا، لكن العمة كاميل لن تودّ أن تؤجل الخطوبة بسببها. فهي تعرف مشاعري نحو تيس، لقد قلت لها وأنا هناك، وكانت سعيدة، نحن نفكر بها جوليوس. نريد أن تبقى عائلتها حولها، نريدها أن ترى كم نحن سعيدان، أنا وتيس.

فصاح جوليوس مجدداً: «قلت لا! فمجرد فكرة وجودكم سوف تثيرها. على أي حال، هذا مستحيل، فأنا بحاجة أن يبقى ميستيك في سيدني لبضعة أسابيع، لدي التزامات...».

فأشارت تيس لبيرس: «لا بأس بيرس، نستطيع الانتظار. ألا يمكننا هذا؟».

وضع بيرس يده فوق فم الهاتف: «لا، لا نستطيع! ألا ترين ما يحاول أن يفعله؟».

وأزاح يده، ثم قال مصرّاً على أسنانه: «إذن سنقيم الحفلة هنا. أنا لن أؤخرها جوليوس، وسأنشر الإعلان غداً في الصحف، وأريد حفلة الخطوبة في نهاية الأسبوع المقبل، وإذا لم يكن الميستيك متوفراً فسأقيمها في منزلي!».

فتنهد جوليوس بصوت مسموع: «فليكن إذن.. ميستيك ليس محجوزاً ليوم السبت المقبل، ولنأمل ألاّ يحدث شيء في هذه الأثناء».

وكانت لهجته محذرة: «لكن كن مستعداً لإلغاء الحفلة في الدقيقة الأخيرة، وحضور جنازة بدلاً منها!».

تمتم پيرس: «سأخاطر».

وأقفل الخط.

كانت الحفلة على متن ميستيك في أوجها، وكان شيء واحد فقط يزعج سعادة تيس... لم يأت جوليوس ودي، أو أنهما لم يحضرا بعد. وكل الضيوف كانوا على متن اليخت ما عدا أندرو وصديقتها القديمة باميلا اللذان أرسلا رسالة عبر الهاتف أنهما سيتأخران لمشكلة في سيارتهما، لكن بسبب التأخير في الوصول كان ميستيك لا يزال واقفاً عند رصيف الميناء، غير قادر على الانطلاق في الرحلة البحرية المقررة.

قالت تيس: «ربما تأخرت طائرة دي».

فالتوى فم پيرس: «لكانوا بلغونا بهذا! كنت أعرف أنه سيفعل شيئاً كهذا».

نظرت تيس إلى عينيه السوداوين، ورأت فيهما غضباً مشتعلاً.

فهمست، وعقدة خوف تتلوى داخلها: «ماذا تعني؟».

پيرس يعرف والده أكثر مما تعرفه هي، ويعرف ما هو قادر عليه، وإذا لم يكن موافقاً على خيار ابنه...

هز پيرس كتفيه: «لديه ما يشغل باله، ولست أدري ما هو، أو ما سببه».

قالت تيس متنهدة: «يريدك أن تتزوج سيرينا».

رفع حاجبه: «أجل ربما... حسناً. لن أدعه يفسد هذا اليوم، لا



شيء سيفسده، سنستمتع أكثر دون وجوده».

عضت تيس شفتها، تحاول ألاّ تفكر بالأسوأ، وقالت ذراعها حوله: «أنا واثقة أن هناك تفسيراً منطقياً».

وأحست بالتوتر يشد عضلاته وهي تمرر يدها على ظهره وكتفيه. كما أحست بموجة حب متصاعدة لأنها تعرف أن غضبه من أجلها وليس لنفسه، وقالت تقترح: «ربما يجب أن تتصل بهما.. قد يكون السبب عمتك».

ـ إذا كان الأمر هكذا، فلا شيء نستطيع أن نفعله. لن أتصل به، وما إن يصل صديقاك أندرو وباميلا، حتى ننطلق.

ونظر إليها، وحنان متجدد يبعد ظل الاستياء من عينيه.

ـ وفي هذه الأثناء حبيبتي هل لنا أن نذهب لننضم إلى الآخرين؟ لقد حان وقت الاستمتاع.

ـ آسف للتأخير.

واستدارت تيس لسماع صوت جوليوس برانسون. لقد ظهر من دون سابق إنذار، وأحست أنها ترتجف، بإحساس منذر بشر. كان هنا بعينيه الزرقاوين الشاحبتين القاسيتين ووجهه الجامد وشعره الأبيض المسرّح، تحت أشعة شمس الظهيرة، فسأله پيرس بحدة: «أين دي؟».

قابل جوليوس عيني پيرس: «أمك لن تأتي. عمتك ماتت هذا الصباح. وهذا ما أخرني، كنت أتكلم على الهاتف، لأرتب الأمور».

أحست تيس أن پيرس يأخذ نفساً عميقاً وقال بصوت مشدود: «إذن كنت على حق، كان يجب أن ننتظر. هذا ما جئت لتقوله، أليس كذلك؟».

لوى جوليوس شفتيه: «لقد تأخر الوقت للقلق بشأن هذا الآن. ولم أرَ داعياً لإخبارك في وقت مبكر لأتسبب لك في مشكلة تقرير ما إذا كنت ستلغي احتفالك أم لا.. لا تستطيع فعل شيء في هذه المرحلة. والجنازة لن تتم قبل يومين، وستدفن عمتك في الجزيرة، كما كانت ترغب».

لامست تيس ذراعه بتهور: «أنا آسفة سيد برانسون، أعرف كم كنت أنت وزوجتك مقربين منها».

فنظر إليها بعينين منحرفتين بسبب أشعة الشمس.

- شكراً لك. أرجو ألاّ يعكّر هذا صفو يومكما.

ابتلعت تيس ريقها وهزت رأسها نفياً، تتساءل عما إذا كانت هذه طريقته في القول إنه آسف على الطريقة التي عاملها فيها في الماضي، أو لعلها طريقته في إعطائها بركته أخيراً، ونظرت إليه بارتياب. لقد راعى مشاعرهما لئلا يفسد عليهما يومهما، وجاء بنفسه، مع أن لديه عذر قوي ألاّ يأتي.

قال پيرس بحزم: «لا شيء سيعكر صفو هذا اليوم».

ووضع يده على كتف تيس، ولوّح إلى أحد أفراد الطاقم ممن يوزع الشراب على المدعوين، وقال متحدياً: «ألن تشرب نخبنا جوليوس؟».

وقبل أن يرد والده، وقف شخص بينهما، امرأة سوداء الشعر في بنطلون واسع بألوان الرمادي الداكن والعاجي، ورمت نفسها على تيس: «تيس، صديقتي القديمة، كم أنا سعيدة لك! دعيني أرى خاتمك».

وأخذت يد تيس.

ابتسمت تيس بارتياح: «باميلا، ماذا حدث لسيارتكما؟ ظننت أنكما لن تتمكنا من المجيء».

- أوه، لا تهتمي بهذا...

والتفتت إلى پيرس.

- هذه هي باميلا التي سمعت الكثير عنها. صديقتي الأكثر موهبة. إنها مهندسة معمارية لامعة، وعازفة كمان ممتازة.. وهي تعزف أحياناً مع فرقة سيدني السيمفونية.

دفع أندرو نفسه إلى الأمام: «وتذكرني أنا أيها الصديق القديم؟».

ومد يده إلى الأمام استعداداً لمصافحة منافسه القديم.

- لقد صنعت معي معروفاً، پيرس بسرقتك تيس مني...

واستدار يغمز باميلا، وأحست تيس بالارتياح لرؤية أن العدائية القديمة قد ولت.

ومع استدارة پيرس عنه ليتكلم مع باميلا، تقدم أندرو خطوة نحو تيس



ليحضنها بسرعة، وقال: «حسناً يا تيس، أخيراً حصلت على ما تريدين».

ولو أن لهجته كانت ممازحة دون قصد، إلا أن تيس أحست بشيء من الذنب لتذكرها الطريقة المتعمدة التي انطلقت فيها للفت نظر پيرس برانسون في أول مرة صعدت فيها على متن ميستيك، والطريقة التي استغلته بها للوصول إلى والده... ليتها تقدر أن تقول الحقيقة لپيرس وتزيحها عن صدرها!

ورأت جوليوس برانسون يراقبها وهي تنظر خلف أندرو، وعرفت في تلك اللحظة أنه لا يمكن ألا يكون قد سمع ما قاله أندرو، وأحست بقلبها يغور، وهي تعلم أن هذا سيؤكد له ما يظنه بها، وواجهته متحدية، وعيناها تقولان له بشجاعة وفخر إنها تحب ابنه لأنه الرجل الذي تريده، وليس لماله أو اسمه، أو مركزه، وأن بإمكانه الظن بها كما يريد!

لكنها أحست برجفة حين رأت سؤالاً في أعماق العينين الزرقاوين الشاحبتين، بدلاً من الإدانة، ونعومة بدلاً من القسوة.

ثم استدار مبتعداً.

وبقيت مرتجفة... هل بدأ جوليوس يدرك أخيراً كم تحب پيرس؟ وهل سيعتاد أخيراً على فكرة زواج ابنه بامرأة لن يوافق عليها أبداً، وما كان ليختارها؟

مع غروب الشمس خلف الغيوم القرمزية، عاد ميستيك إلى المرسى، وودع الضيوف مضيفيهما وأحست تيس بيد على ذراعها، فرفعت نظرها لترى جوليوس برانسون.

قال: «تعالي معي إلى الأسفل.. أريد أن أكلمك».

فأحست بحلقها ينقبض، بالتأكيد لا يفكر بمحاولة أخرى لشرائها؟

ونظرت حولها بسرعة تفتش عن پيرس، لكنه كان مستغرقاً في وداع آخر مجموعة من الضيوف عند المخرج، وهو يدير ظهره لهما.

قال جوليوس: «يمكن لپيرس أن ينضم إلينا لاحقاً، هيا، تعالي معي».

وشدها مبتعداً بها.

وراح تفكيرها يواجه كماً من الأسئلة طوال الطريق إلى الجناح الخاص الفخم في القسم الأدنى من اليخت، هل يجرؤ أن يفعل ما فعل مرة أخرى؟ هل تمنع حتى الآن بانتظار موت كاميل المسكينة، لأنه لا يريد أن يسبّب لها أي كرب محتمل في أيامها الأخيرة، وهو يعرف كم كان ابنه مقرباً من عمته، وكم كانت سعيدة لأجله؟ أجل، كان سيكربها جداً أن تراهما ينفصلان.

قادها جوليوس عبر الغرفة ودعاها للجلوس. كانت الغرفة مكتبة وغرفة مطالعة خاصة، فيها بضع مقاعد مريحة ورف كتب مرتب يغطي جداراً كاملاً، ومنضدة حديثة.

وقالت، ترفع ذقنها متحدية: «أفضل أن أبقى واقفة».

هذا أسهل عليها لتهرب، إذا كان ضرورياً.

ـ كما ترغبين.

تنفس جوليوس بقوة، وظهر التوتر على وجهه.

ـ أنا حر أخيراً أن أقول لك شيئاً كنت مضطراً لأن أخفيه، لسنوات طويلة.. الحقيقة عن والدك.

لم يكن ما يقوله متوقعاً، بحيث اضطرت للتمسك بظهر المقعد لتدعم نفسها.

وسألت بصوت متكسر: «هل... هل ستقول أخيراً إنك أبي؟».

وغمرتها الصدمة والرعب، كيف سيؤثر هذا على علاقتها بيبرس؟ سينهيها! لا يمكن لكليهما أن يكون لهما الأب نفسه، حتى ولو لم يكن بيرس ابنه الحقيقي، ففي نظر القانون، ستكون هي وبيرس أخ وأخته!

شهقت مختنقة. لا عجب إذن أن جوليوس حاول فصلهما!

سارع جوليوس ليطمئنها: «أنا لست أباك، وقلت لك قبل الآن إنني لست أباك، لكنه كان شخصاً مقرباً جداً مني... أخي الأكبر، سايمون، زوج كاميل».

فحدقت فيه بشفتين فاغرتين وسألت بغباء: «أتعني... الزوج الذي



مات؟».

ـ أجل، لقد مات منذ سنوات. قتل في حادثة غريبة، خلال سباق في ميناء سيدني.. ولقد تدمرت كاميل بالكامل، كانا مقربين جداً.

لم تستطع استيعاب ما يقول: «هل تقول إن أمي...».

ـ كانت على علاقة معه، وبالكاد هذا حتماً، كانت مجرد نزوة ليلة عابرة، خلال مؤتمر كنا نحضره ثلاثتنا، وحين قالت أمك له في ما بعد إنها حامل، أسرّ سايمون بهذا لي.

وتحولت لهجة جوليوس إلى التجهم، وغادرته الحدة.

ـ قال إن هذا حدث في وقت ضغط عصبي عند كليهما. كانت أمك مكتئبة، وكان أخي يشعر بالاكتئاب بعد أن عرف لتوه، أن زوجته التي يحبها كثيراً لا تستطيع الإنجاب. وخلال مواساتهما لبعضهما...

وتنهد.

نظرت تيس إليه بشفقة وهي تشعر كم من الصعب عليه أن يقول لها هذا، وبللت شفتيها الجافتين.

ـ وحين عرف أنها تتوقع طفلاً...؟

«تتوقعني...»، فكرت بألم، وهي تترك السؤال معلقاً.

ـ أسرّت أمك بهذا لسايمون، وابتهج أخي كونه يئس من الإنجاب، وأصيب باكتئاب في الوقت عينه. وفكر فوراً بكاميل، التي يحبها أكثر من حياته. لطالما كانت ضعيفة هشة، ومن السهل جرحها. وأيقن أنها لو عرفت أنه سينجب ولداً من امرأة أخرى، سيدمرها هذا، يدمرهما معاً. أكدت أمك له أنها لن تقول شيئاً أمام أحد حتى أنت يا تيس. فقد كان أخي يفكر بكاميل المسكينة، زوجته الحبيبة. زوجته التي كانت يائسة أصلاً بسبب عدم قدرتها على الإنجاب. ويجب أن تحاولي مسامحته تيس.

وتقدم نحوها متوسلاً.

رفعت تيس نظرها إليه، وعيناها مبللتان بدموع لم تذرفها، وقالت هامسة: «إذن، هذا هو سبب إخفائك الأمر، لكن، أخاك مات منذ

سنوات، مع ذلك، بقي ماله يأتيني، هل كنت أنت من يرسله سيد برانسون؟

وأطرق رأسه باختصار.

- كان لأخي هاجس مسبق قبل دخوله سباق اليخوت، أو ربما كان يتخذ احتياطاً حكيماً، وهو يعرف مدى خطورة السباق، وقال لي إنه لو حدث له شيء، فعلى الدفعات المعتادة التي كان يرسلها لك ولأمك، أن تستمر، وجعلني أقسم أن أحفظ سره طالما زوجته حية، وقال إن مشاعر كاميل وصحتها يجب أن تكون أهم من أي شيء آخر.

وظهر في عينيه الألم... والاعتذار وهما تلتقيان بعينيها.

وابتلعت ريقها.

- على الأقل الآن، أعرف لماذا تصرفت معي كما فعلت حين اتهمتك أنك أبي. ولا عجب أنك أردت التخلص مني لأنني كنت أهدد سلام الأيام الأخيرة لزوجة أخيك. على الأقل، حسبما تفكر، ولم تكن تعرفني، وأنا أفهم هذا. لم تكن قادراً على المخاطرة في بقائي صامتة، ما إن أعرف الحقيقة.

- لا، لم أكن أعرفك، ليس في ذلك الوقت، ولم أجرؤ على قول الحقيقة لك، أو حتى أن أظهر أي ردة فعل لك حين التقينا أول مرة. ليس وكاميل في المنزل، وصحتها دقيقة. وأعترف، أنه كان لي تحفظات محددة حولك في البداية، حول ما تريدينه منا. وكان عليّ أن أسأل نفسي، هل تسعين فقط وراء المال؟ وراء ما تعتبرينه حقاً لك؟ هل كنت تستغلين بيرس، لتصلي إليّ؟ أم أنك تأملين في أن تجعليه يتزوجك كي تصلي إلى ميراثك بالطريقة السهلة؟ في ذلك الوقت كما تفهمين، لم أعتقد أن بيرس جاد. فهو لم يكن يوماً جاداً بشأن أي امرأة أخرى في حياته، ولا أظهر أي دليل على رغبته في الاستقرار. ولم أعتقد أنه سيكون مهتماً بعمق، أو لوقت طويل.

أطرقت تيس ببطء: «هكذا قلت لي إنك لست أبي، وهذا صحيح. وعرضت عليّ ثروة صغيرة لتتخلص مني».

تنهد: «هذا صحيح، كان عليّ أن أبقيك بعيداً عن كاميل، فنظرة



واحدة منها إليك، إلى شعرك وعينيك، وطريقة تصرفاتك، كانت ستجعلها تتعرف إلى شعر سايمون، حين التقته لأول مرة. كان له اللون الأحمر الغني مثلك.. كان شعره أكثر احمراراً من لون شعري. لكنه تحول إلى الرمادي أسرع من شعري».

فتح يديه: «وكنت خائفاً كذلك أن يكون بيرس قد ذكر لكاميل أن أمك عملت لدي يوماً، وبهذا كانت تعرف... مسكينة كاميل... كان بإمكانها بسهولة جمع اثنين واثنين».

أصبح كل شيء مفهوماً الآن.

- أجل، أجل، أفهم هذا.

وتابع جوليوس بوقار حزين: «في ما بعد، وقد أدركت أنكما جادان في علاقتكما، حاولت جهدي أن جعلكما تنتظران. وأنا أعرف أن كاميل لم يعد لها وقت طويل، لأنني كنت أعرف أنه لحظة خطوبتكما، سيأخذك بيرس لمقابلة كاميل».

وأمسك يدها يسحقها بين يديه: «عزيزتي، أنا خجل جداً للطريقة التي عاملتك بها، لكنني أدركت بسرعة أنك لا تسعين وراء مالنا، وأنك لم تسعي إلينا لتحصلي على ما يمكنك منا، لقد جئت إلينا لحاجة طبيعية... لمعرفة الحقيقة. لمعرفة أصلك وعائلتك. وأنا خجل جداً لأنني ظننت يوماً أن هناك سبباً آخر».

- حسناً، حسناً...

تشدق صوت عن الباب، واستدارت تيس ويدها تنزلق من قبضة جوليوس.

همس: «تيس!».

وضاقت حنجرتها لرؤيته، كان الغضب مشتعلاً في العينين السوداوين، وهو يدخل الغرفة ليواجهها.

- إذن، لم يكن لقاؤنا صدفة تيس؟ وليس صدفة أنك أسرت نظري ذلك اليوم، وأمضيت الأسبوع التالي وأنت تتأكدين أنك نصبت شركك

حولي!».

ولم يلمسها، وكان جسمه متصلباً كوجهه. . إنه ينبذها، يبعدها عنه.

ـ لقد خططت منذ لحظة التقينا، أن تستغليني، تتلاعبي بي، وكيف لم أر هذا بحق السماء؟ دلائل التحذير كانت موجودة، كل تلك الأسئلة الماكرة عن جوليوس برانسون. والإعجاب الساخر بطريقة عيشنا، بكل شيء نفعله، كان كل هذا ادعاء!

فقالت تتهمه: «منذ متى وأنت تقف هناك تسترق السمع؟».

وبدا لها الهجوم أفضل وسيلة للتعامل مع الموقف. . لن تستطيع الإنكار، لقد استغلته فعلاً!

ـ لوقت يكفي أن أسمع كل ما أريد سماعه، أو لم أرغب في سماعه!

وخطا خطوة نحو الأمام، فأجفلت تحت الغضب المشتعل في عينيه، ولو أنها أحست أن غضبه هو مجرد غطاء للجرح الذي كان يشعر به: «أنت لم ترغبي بي قط. . كنت فقط وسيلة للوصول إلى أبي، واستمريت في استغلالي إلى أن تمكنت من انتزاع اعتراف منه! حسناً، لقد حصلت على ما تريدين. أنت الآن من عائلة برانسون، وحقيقية، على عكسي وعكس فوبي، لماذا لا تمضين قدماً وتطالبين بحقك، ملايين برانسون الثمينة. . . ما عدتِ بحاجة إليّ لتضعي يدك على ميراثك!».

فأحست جرحاً كنصل السكين، لكن، بدلاً من أن تذوي تحت تهجماته الكلامية، أخفت جرحها وردت عليه هجومه: «وماذا عنك؟ لماذا لاحقتني منذ البداية؟ لأنك أردت الإيقاع بي! حتى أنك حذرتني ألاّ أتوقع علاقة لها معنى! ولماذا تابعت ملاحقتي؟ لأنك وجدتني تحدياً لا سبيل إلى مقاومته، لأنني لم أقع في شركك لمجرد أنك أردت ذلك!».

رأت شيئاً يومض في عينيه، لكنها لم تتوقف، بل أكملت بصوت خافت حاد: «ولو أنني كنت أريد ملايين أسرة برانسون، هل كنت تظن أنني سأدعم خططك في الالتزام بمهنة المحاماة، وأنا أعرف أن هذا قد يعني أن تتخلى عن كل شيء، وأعرف أننا يمكن أن نحرم دون. . .».



ووضعت يدها على فمها بخوف. وقد أدركت أن جوليوس لا زال في الغرفة، وسمع كل كلمة.

لكنها ذهلت حين لوح جوليوس بيده مستسلماً: «لطالما كنت أعرف بطموحك يا بني. ولقد قلت لي هذا أكثر من مرة، لكنني كنت أرفض النظر إلى هذا بجد. . . كنت آمل أن يكون هذا مجرد نزوة عابرة، طريقة لإبقاء دماغك حاداً، لأن أعمال العائلة لا تعطيك ما يكفي من مسؤوليات أو تحدٍ، وأنا لا أزال في السلطة، لكن إذا كنت تريد حقاً أن تخصص نفسك لمهنة القانون. . .».

قال بيرس بحزم: «هذا ما أريده، وسأبقى مستعداً لإعطاء النصيحة القانونية كما قلت لك من قبل جوليوس. أنا لن أدير ظهري لأعمال العائلة، بل أنا أبعد من هذا بكثير، وسأبقى في مقعدي في مجلس الإدارة كمدير تنفيذي، سأستبقي أسهمي في العمل، إذا أردتني أن أفعل هذا. لكن فوبي وتوم قادران تماماً على إدارة الأعمال، وإدارتها جيداً، من دوني، وهذا ما يريدانه».

أطرق جوليوس برأسه وقال متنهداً: «إذن، فليكن هذا! لن أقف في طريقك، فالرجل يعرف متى يهزم».

نقل نظره من تيس إلى ابنه، وكان فيهما تعبير أكثر دفئاً: «سأترككما لتحلا الأمور بينكما، وأنا واثق أنكما ستفعلان».

وارتجفت شفتاه وهو يستدير ليتركهما. وكأنما يعرف أن الحب العميق الذي يكنه أحدهما للآخر سوف يشفي أي جرح أو غضب يشعران به الآن.

واستدارا ليواجها بعضهما، وكلاهما لا يزال متوتراً، والتقت عيونهما. . . السوداوان، مع الزرقاوين، والكبرياء تقاتل الكبرياء، وطالت النظرة، ثم تغيرت. شعلة مرح صغيرة بدت في السوداوين، ولمعان مستجيب أضاء الزرقاوين.

قال بيرس: «أعتقد أنه كان لكل منا دوافع خفية، في البداية».

ورفعت ابتسامة ساخرة زاويتي فمه. وارتجفت شفتاها: «لكن، في

البداية فقط، إلى أن، إلى أن... غير ما أشعر به نحوك كل شيء، بيرس...».

رفعت نظرها إليه بلهفة: «حين اكتشفت وأنا في آكاما أن جوليوس ليس أبي، شعرت بالارتياح وليس بخيبة الأمل فهذا يعني أن مشاعري نحوك يمكن..».

قاطعها بلطف: «أعرف.. مهما كانت دوافعنا في البداية أنت وأنا... مشاعرنا نحو بعضنا، والحب الذي نما بيننا، أزاح كل شيء جانباً، وهذا هو كل ما يهم تيس، كيف نشعر نحو بعضنا الآن، من اليوم وصاعداً».

تفحصت عيناها وجهه: «أتعني، أنك تسامحني للطريقة التي...».

وضع يديه على كتفيها: «صه، لا شيء نتسامح به، دوافعنا الأساسية، بحثك عن والدك، و... حسناً أنا أعترف، نواياي الخبيثة نحو فتاة رائعة حمراء الشعر، هي التي جمعتنا معاً، وأبقتنا معاً حتى الآن وإلى أن عرفنا أننا ننتمي لبعضنا. والآن، تعالي إلى هنا».

وضمها بين ذراعيه: «أحبك تيس كينللي، ولا أنوي أن أتركك تنسين هذا، أبداً».



## الخاتمة

جلست تيس في الشرفة المليئة بأشعة الشمس في منزلها المجاور للميناء، تراقب اليخوت الملونة والعبارات المزينة في الميناء. هذا يوم وطني آخر لأوستراليا، والعيد الثاني لأول لقاء لها مع بيرس، وتمنت لو يسرع في العودة إلى الوطن.

استندت إلى ذراعيها تحتضن سرها. ستصل طائرته من سنغافورة عند الساعة الرابعة، فقد كان خلال الأيام الخمسة الماضية في مؤتمر قانوني، يعقد بعض الاتفاقات لمصلحة شركات أبيه، وكانت هذه أطول مدة افترقا فيها.

كانت تخطط لعشاء منزلي رومانسي على ضوء الشموع، لهما وحدهما. وكانت مائدة العشاء المطلة على الميناء عبر نوافذها المتسعة، محضرة بأفضل الأدوات الفضية والكريستالية، وأفضل ما لديها من ملاءات مطرزة. السلمون المدخن حاضر، الروستو ينضج على مهل في الفرن، وقالب الحلوى بالتفاح جاهز ولا شيء يحتاج إلى تحضير في الدقيقة الأخيرة.

فتشت القوارب في الميناء، تبحث عن الميستيك... هل يمانع بيرس ألاّ تكون أوليفيا هنا حين يعود؟ لقد أخذت دي ابنتهما البالغة سبعة أشهر على متن اليخت الكبير لقضاء اليوم، كي تستطيع هي وبيرس أن يكونا وحدهما... ودي تحب الاعتناء بها. فعندما تذهب كانت تترك الطفلة إما مع دي أو مع هوني، مدبرة المنزل الدافئة القلب. وكانت أسرة هوني تقيم في المنزل العائلي القديم في الميناء حين انتقلت تيس لتعيش هناك مع بيرس. ولقد رغب جوليوس ودي في مكان أصغر كمنزل لهما في سيدني، وانتهى

بهما الأمر للسكن في شقة بيرس المجاورة. وبهذا تبادلا السكن! أما فوبي وتوم، فقد تزوجا كذلك قانعين في البقاء في شقتهما الصغيرة. ويتشارك الجميع ملعب التنس، وبركة السباحة تحت المنزل العائلي القديم، والأمور تسير بينهم على ما يرام.

جلست تيس مستوية لرؤية الميستيك يمر بها.. لوحّت وهي ترى دي تحمل أوليفيا عالياً. هل هذه فوبي التي تقف إلى جانبها؟ كانت العائلة تعرف ما كانت تخطط لهذا المساء، لكن... وأحست بقلق بسيط، ماذا لو تأخرت طائرة بيرس؟ ماذا لو لم يلحق بها أصلاً، ولم يصل إلى البيت في الوقت المناسب ليحتفل بهذه الأمسية الخاصة معها؟ لم يذكر لها عطلة عيد أوستراليا الوطني حين اتصل ليلة أمس من سنغافورة ليقول إنه يأمل أن يعود في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم التالي فهل كان مشغولاً جداً بمؤتمره القانوني وأعماله القانونية الأخرى حتى نسي أي يوم هذا في أوستراليا؟

هذا ليس من عادة بيرس، ولم يكن من عادته كذلك نسيان ذكرى زواجهما. إنه في العادة جيد جداً في هذه الأمور، رومانسي ومتحمس للاحتفال، ليس فقط بأعياد الميلاد وذكرى الزواج، بل كذلك بأي مناسبة خاصة أخرى في حياتهما، مما يجعلها تشعر أنها مميزة، ومرغوبة، ومحبوبة جداً.

في السنة الماضية احتفلا بعيد أوستراليا مع عائلته وبضع أصدقاء مقربين، على متن الميستيك، كما كان الأمر يوم التقيا أول مرة. وكانت حاملاً في شهرها الرابع بأوليفيا. أما اليوم، فقد رفضت دعوة العائلة للانضمام إليهم في الميناء، وفهموا السبب. عرفوا أنها تريد أن تكون في البيت ساعة يصل بيرس. ولو أن أحداً لا يعرف بعد، ومررت يدها على بطنها الذي لا يزال مسطحاً.. إن هذا الاحتفال، مميز جداً.

وعضت على شفتها، لكن هل سيصل بيرس في الوقت المناسب ليحتفل معها بهذا اليوم المميز؟ إذا تأخرت طائرته ولم يصل قبل المساء. فهل سيشعر برغبة في عشاء رومانسي على ضوء الشموع بعد ليلة طيران طويلة من



سنغافورة؟ ربما سيرغب فقط بأن يرمي نفسه في الفراش وينام. هذا إذا كان قد وصل إلى منزله، ومن يدري، ربما قرر أن يلحق بطائرة متأخرة، وينسى أن هذا يوم مميز، أو أنه لم يعد يظن أنه مهم...

أطلقت تنهيدة عميقة... هل هذا ما يحصل بعد سنة ونصف من الزواج؟ هل هذه بداية النهاية لشهر العسل؟ هل استقر الرضا النفسي؟ أم أنها تشعر بأنها عاطفية قليلاً وغير آمنة لأنها حامل مرة أخرى؟ لقد أكدت لها الطبيبة حملها بالأمس. هل سيكون بيرس سعيداً؟ أم أنه سيظن الوقت مبكراً؟ حين يصل الطفل الجديد ستكون أوليفيا لا تزال تستخدم الحفاضات!

حين رن جرس الباب قفزت واقفة بارتياح، لكنها ترددت في منتصف الطريق إلى الباب... لماذا يرن بيرس جرس الباب ولديه مفتاحه؟ هل قررت باميلا وأندرو أن يزوراها، لأنهما يعرفان أنها وحدها؟

فتحت الباب، ورأت الورود الحمراء قبل أن تلاحظ الفتاة التي تحملها. وأحست بقلبها يغوص إلى قدميها... لن يأتي، ولقد أرسل الزهور بدلاً عن هذا!

وحملت الورود إلى الداخل، لم تكن قد رأت مثل هذا العدد من الورود الحمراء في حياتها. كانت مغطاة بورق شفاف، وعليها مغلف أبيض. وضعت الورود بحرص من يدها على أقرب طاولة وفتحت المغلف.

بدلاً من البطاقة في داخله، وجدت رسالة مطوية... ورمشت بعينيها حين رأت أنها من بيرس... رسالة مكتوبة بخط يده، الآن... كيف هذا...؟

غاصت في مقعد لتقرأها:

حبيبتي تيس.

صديق التقيته في سنغافورة سيوصل هذه الرسالة إلى بائع الورود في سيدني، بما أنه سيصل في طائرة مبكرة. لم أرغب في إرسالها بالفاكس، فهذا لم يبدُ لي صائباً.

هذه الورود لك حبي، في هذا اليوم المميز، العيد الثاني لأول يوم التقينا فيه، عيد أوستراليا الوطني. اليوم الذي غير مجرى حياتي وغيرني، يوم لن أنساه أبداً تيس، لأنه أوصلني إليك، يا أعز الناس، في هاتين السنتين الماضيتين الرائعتين، وخاصة منذ تزوجنا، أعطيتني الكثير. حبك، صحبتك، حكمتك، مرحك، ودعمك المحب، وبالطبع، أعظم هدية على الإطلاق، ابنتنا أوليفيا، التي تشبه أمها أكثر فأكثر، في كل يوم. أنت أفضل صديق لي يا حبيبتي، وحياتي!

حين كلمتك ليلة أمس عبر الهاتف، هل ظننت أنني سأنسى يوماً كهذا؟ أردت مفاجأتك بهذه الرسالة والورود، وهل تدركين... وهذا اعتراف كبير مني! أن هذه هي أول رسالة حب أكتبها في حياتي؟ ولم أرسل وروداً حمراء لأي امرأة غيرك، وبالنسبة لي إنها تمثل الحب.

إذا كنت تتساءلين لماذا أكتب لك وأنت ستكونين بين ذراعي بعد بضع ساعات، أقول لك إنه من الأسهل أحياناً وضع مكنونات قلب رجل كتابة من أن يقولها وجهاً لوجه. فإن بدا هذا سخيفاً فلن أضطر إلى رؤيتك تضحكين علي. لقد ضحكنا كثيراً تيس، أنت وأنا، ولطالما تشاركنا روح المرح.. ننفجر ضاحكين على أشياء يراها الكثيرون جديّة. لذا، وأنا أخاطر أن تضحكي علي، سأتجرأ أن أقول بعض كلمات أخرى.

تيس أنا مشتاق إليك كثيراً، ولقد اشتقت إليك في كل ثانية من الأيام الخمسة المنصرفة والليالي الخمس الطويلة... خاصة الليالي... أنا مشتاق للمس بشرتك تحت أصابعي، لصوتك الأجش، وقبل أي شيء آخر، أنا مشتاق لوجهك الجميل، وشعرك المتوهج الذي أحب أن أمرر أصابعي فيه.

تيس، أنا مشتاق إليكما كثيراً، فهل اشتقت إلى حبي؟ وهل اشتاقت إليّ أوليفيا يا ترى؟

آمل ألاّ يكون قد فاتني شيء جديد فعلته ابنتنا منذ سافرت، إنها تتغير بسرعة، وتكبر بسرعة.

حين أصل إلى البيت دعينا ننجب طفلاً آخر؟ ليكن عندنا الكثير من



الأولاد حبي.. فتاة أخرى جميلة ستكون رائعة...

سأصل إلى البيت حوالى الخامسة، فإذا خططت لأمسية احتفالية في الخارج، فالغها تيس ودعينا نبق في البيت، يمكن أن نتصل لنطلب البيتزا ونأكلها ونحن على الشرفة تحت النجوم، نراقب الألعاب النارية في الميناء. ثم، دعينا ننام باكراً؟

قبلي أوليفيا عني، أحبكما معاً، وإلى الأبد وإلى ما وراء الأبد.

زوجك المحب

بيرس

***